سلسلة متون معهد السُّنّة - رقم (٣٧) / الجزء السابع

النسخة الأولى (١٤٤٣)

معهد السنة
As-Sunnah College

تيسِير الكَريم الرَّحمن

في تَفسِير كَلام المنَّان

الجزء السابع: المفصل (من ق إلى الناس)

لعبد الرحمن بن ناصر السعدي

توفي سنة ١٣٧٦ هـ رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

اعلم أنَّ طريقتي في هذا التفسير أنِّي أذكرُ عند كلِّ آيةٍ: ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلَّق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلَّق بالمواضع اللَّاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنَّه (مثاني) تثنَّىٰ فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النَّافعة لحكمٍ عظيمة، وأمر بتدبُّره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها.

٥٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ ق
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ [ق]

[١] يُقسِمُ تعالىٰ بـ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. **والمجدُ**: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحقُّ كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوىٰ علىٰ علوم الأوّلين والآخرين، الذي حوىٰ من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمَّها وأحسنها.

[٢] وهذا مُوجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله علىٰ المنة به؛ ولكن أكثر الناس لا يقدِّر نعمَ الله قدرها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾؛ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: ينذرهم ما يضرُّهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقِّي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجَّبوا من أمر، لا ينبغي لهم التعجب منه؛ بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم.

﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾؛ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم، فهذا يدل علىٰ غاية جهلهم، وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون، الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجَّب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأيُّ ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجُّبه، إلا دليل علىٰ زيادة وظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، علىٰ وجهٍ يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم

الظُّلم وأشنعه.

[٣-٤] ثم ذكر وجه تعجُّبهم؛ فقال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاسوا قدرة من هو علىٰ كل شيء قدير؛ الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل؛ الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ من أجسادهم مدة مقامهم في البرزخ، وقد أحصىٰ في كتابه الذي هو عنده محفوظٌ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم، ومماتهم، وهذا استدلالٌ بكمال سعة علمه؛ التي لا يحيط بها إلا هو، علىٰ قدرته علىٰ إحياء الموتىٰ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق]

[٥] أي: ﴿بَلْ﴾: كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلىٰ أنواع الصدق، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾؛ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون علىٰ شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عِضين، كلٌّ قال فيه، ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا، كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدري له [وجهٌ] ولا قرار، فترىٰ أموره متناقضة مؤتفكة كما أنَّ من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعلُه قيله.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق]

[٦] لما ذكر تعالىٰ حالة المكذِّبين، وما ذمهم به= دعاهم إلىٰ النَّظر في آياته الأفقية؛ كي يعتبروا، ويستدلوا بها، علىٰ ما جعلت أدلة عليه؛ فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلىٰ كُلفة وشد رحل؛ بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلىٰ الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترىٰ فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالًا ولا إخلالًا، قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

[٧] ﴿وَ﴾ إلىٰ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ كيف ﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾ ووسعناها، حتىٰ أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل، والتموج، ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾؛ أي: من كل صنف من أصناف النبات، التي تسر ناظريها، وتُعجب مُبصريها، وتقر عين رامقيها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم.

[٨-١١] وخصّ من تلك المنافع بالذِّكر: الجنات المشتملة علىٰ الفواكه اللذيذة؛ من العنب والرمان والأترجّ والتفاح، وغير ذلك، من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلىٰ السماء، حتىٰ تبلغ مبلغًا، لا يبلغه كثير من الأشجار، فتُخرج من الطلع النضيد، في قِنوانها ما هو رزق للعباد، قوتًا وأدمًا وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم، وكذلك ما يُخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار، التي علىٰ وجه الأرض، والتي تحتَها من ﴿حَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾؛ أي: من الزرع المحصود، من بر وشعير، وذُرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإنَّ في النَّظر في هذه الأشياء ﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ يُتَبَّصر بها، من عمىٰ الجهل، ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ يُتذكر بها، ما ينفع في الدين والدنيا، ويُتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد؛ بل ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ إلىٰ الله؛ أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأمَّا المكذب والمعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والقوة والشدة= دليل علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة دليل علىٰ أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل علىٰ رحمة الله، التي وسِعت كل شيء، وجودُه الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة، وبديع النظام، دليل علىٰ أنَّ الله تعالىٰ، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة، والذل والحبُّ إلا له تعالىٰ.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليلٌ علىٰ إحياء الله الموتىٰ، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾.

ولمّا ذكَّرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية، خوَّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا علىٰ ما هم عليه من التَّكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾ [ق]

[١٢-١٤] أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم، رسلهم الكرام، وأنبياءهم العظام، كـ«نوح» كذبه قومه، وثمود كذبوا صالحًا وعاد، كذبوا «هودًا» وإخوان لوط كذبوا «لوطًا» وأصحاب الأيكة كذبوا «شعيبًا» وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام فقوم تبع كذبوا الرسول، الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع من التبابعة؛ لأنه -والله أعلم- كان مشهورًا عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفىٰ ماجرياتهم علىٰ العرب خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذَّبوا الرُّسل، الذين أرسلهم اللهُ إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، خيرًا منهم، ولا رسلهم أكرم علىٰ الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

[١٥] ثم استدلَّ تعالىٰ بالخلق الأول -وهو [النَّشأة الأولىٰ]- علىٰ الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما أنَّه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلىٰ الرُّفات والرمم، فقال: ﴿أَفَعَيِينَا﴾؛ أي: أفعجَزنا وضعُفت قدرتنا ﴿بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك، وليسوا في شكٍّ من ذلك، وإنما ﴿هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ هذا الذي شكُّوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنَّه لا محل للبس فيه، **لأنَّ الإعادة أهون من الابتداء**؛ كما قال تعالىٰ: **﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾** [الروم:٢٧].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق]

[١٦] يخبر تعالىٰ أنه المتفرِّد بخلق جنس الإنسان -ذكورهم وإناثهم-، وأنه يعلم أحواله، وما يسره وتُوسوِسُ به نفسه، وأنه ﴿أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾، الذي هو أقرب شيء إلىٰ الإنسان؛ وهو [العِرق] المكتنف لثُغرة النحر، وهذا ممَّا يدعو الإنسان إلىٰ مراقبة خالقه، المطَّلع علىٰ ضميره وباطنه،

القريب إليه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

[١٧] وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه علىٰ بالٍ؛ فيجلُّهم ويوقِّرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يُكتب عنه، مما لا يرضي ربَّ العالمين؛ ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ أي: يتلقيان عن العبد أعمالَه كلها، واحد ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات، ﴿وَ﴾ الآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكلٌّ منهما [﴿قَعِيدٌ﴾][(١)] مُقيَّد بذلك، متهيِّئ لعمله الذي أعد له، ملازم له.

[١٨] ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ أي: مراقبٌ له، حاضر لحاله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الانفطار].

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق]

[١٩] أي: ﴿وَجَآءَتْ﴾ هذا الغافل المكذِّب بآيات الله ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾: الذي لا مَرَدَّ له ولا مناص، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾؛ أي: تتأخَّر وتنكصُ عنه.

[٢٠] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: اليوم الذي يلحق: الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

[٢١] ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقها إلىٰ موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بأعمالها؛ خيرها وشرها، وهذا يدلُّ علىٰ اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.

[٢٢] فهذا الأمر، ممَّا يجب أن يجعله العبد منه علىٰ بال؛ ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ أي: يقال للمُعرِض المكذِّب يوم القيامة هذا الكلام، توبيخًا، ولومًا وتعنيفًا؛ أي: لقد كنت مكذِّبًا بهذا، تاركًا للعمل له؛ ﴿فَـ﴾الآن ﴿كَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي غطَّىٰ قلبك، فكثر نومك، واستمرَّ إعراضُك، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروِّعه، من أنواع العذاب والنكال، أو هذا خطابٌ من الله للعبد، فإنَّه في الدنيا، في غفلةٍ عما خلق له؛ ولكنه يوم القيامة، ينتبه ويزول عنه

(١) ليست في طبعة دار ابن حزم.

وسَنُه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارِط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كلُّه تخويفٌ من الله للعباد، وترهيبٌ بذكر ما يكون على المكذبين، في ذلك اليوم العظيم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق]

[٢٣] يقول تعالىٰ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾؛ أي: قرين هذا المكذِّب المعرض؛ من الملائكة؛ الذين وكلهم الله علىٰ حفظه، وحفظ أعماله، فيُحضره يوم القيامة ويحضر أعماله؛ ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾؛ أي: قد أحضرتُ ما جُعلت عليه، من حفظه، وحفظ عمله.

[٢٤] فيجازىٰ بعمله؛ ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المتجرِّئ علىٰ المحارم والمآثم.

[٢٥] ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: يمنع الخير الذي قِبَلَهُ؛ الذي أعظمُه الإيمان بالله وملائكته وكتبه، ورسله، منَّاعٍ لنفع ماله وبدنه، ﴿مُعْتَدٍ﴾ علىٰ عباد الله، وعلىٰ حدوده، أثيم؛ أي: كثير الإثم، ﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان؛ ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشكُّ والريب، والشحُّ، واتِّخاذ الآلهة من دون الرحمن.

[٢٦] ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: عبد معه غيرَه؛ ممن لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾؛ أيها الملكان القرينان ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدُّها وأشنعها.

[٢٧] ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشَّيطان، متبرئًا منه، حاملًا عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾؛ لأني لم يكن لي عليه سلطان، ولا حجة ولا برهان، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، فهو الذي ضلَّ وبعُد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم:٢٢] الآية.

[٢٨] ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ مجيبًا لاختصامهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ﴾؛ أي: لا فائدة في اختصامكم عندي، ﴿وَ﴾ الحال أنِّي ﴿قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج

الواضحات، والبراهين السَّاطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجتكم، وقدِمتم إليَّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

[٢٩] ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾؛ أي: لا يمكن أن يُخلف ما قاله الله وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أصدق حديثًا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]

[٣٠] يقول تعالىٰ مخوِّفًا لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وذلك من كثرة ما ألقي فيها، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ أي: لا تزال تطلب الزيادة، من المجرمين العاصين، غضبًا لربها، وغيظًا علىٰ الكافرين.

وقد وعدها الله مِلأها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة] حتىٰ يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزَّهة عن التشبيه، فينزوي بعضها علىٰ بعض، وتقول: «قط قط؛ قد اكتفيت وامتلأت».

[٣١] ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: قُرِّبت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، وإنما أُزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشِّرك، كبيره وصغيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له.

[٣٢] ويقال لهم علىٰ وجه التهنئة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾؛ أي: هذه الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، هي التي وعد الله كل أواب؛ أي: رجّاع إلىٰ الله، في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه، وخوفه، ورجائه.

﴿حَفِيظٍ﴾؛ أي: يحافظ علىٰ ما أمر الله به، بامتثاله علىٰ وجه الإخلاص والإكمال له، علىٰ أتمّ الوجوه، حفيظٍ لحدوده.

[٣٣] ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ أي: خافه علىٰ وجه المعرفة بربِّه، والرجاء لرحمته ولازم علىٰ خشية

الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد يكون رياءً وسمعة، فلا تدل علىٰ الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشيته في الغيب والشهادة، ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب؛ كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابلٌ للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضروريًّا لا اختياريًا حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر.

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: وصفه الإنابة إلىٰ مولاه، وانجذاب دواعيه إلىٰ مراضيه.

[٣٤] ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾؛ أي: دخولًا مقرونًا بالسَّلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدِّرات.

[٣٥] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم، فهو حاصلٌ فيها ﴿وَلَدَيۡنَا﴾ فوق ذلك ﴿مَزِيدٞ﴾؛ أي: ثواب يُمدِّهم به الرحمن الرحيم؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وأعظم ذلك، وأجله، وأفضله: النظر إلىٰ وجهه الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعُّم بقربه، فنسأله من فضله.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق]

[٣٦] يقول تعالىٰ مخوفًا للمشركين المكذِّبين للرسول: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ أي: أمما كثيرة ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾؛ أي: قوةً وآثارًا في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمّروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آياته، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: لا مفر لهم من عذاب الله، حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوَّتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم.

[٣٧] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾؛ أي: قلب عظيم، حي، ذكي، زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع وكذلك من ألقىٰ سمعه إلىٰ آيات الله، واستمعها، استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٞ﴾؛ أي: حاضر، فهذا له أيضا ذكرىٰ وموعظة، وشفاء وهدىٰ.

وأما المُعرض، الذي لم يُصغ سمعه إلىٰ الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي

حكمة الله هداية من هذا نعته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق]

[٣٨] وهذا إخبار منه تعالىٰ عن قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ **أولها**: يوم الأحد، **وآخرها**: يوم الجمعة، من غير تعب، ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها -علىٰ كِبرها وعظمها- قادر علىٰ إحياء الموتىٰ، من باب أولىٰ وأحرىٰ.

[٣٩-٤٠] ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم وَالْهَ بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالىٰ، مسلٍّ للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق].

[٤١] أي: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ بقلبك نداءَ المنادي -وهو إسرافيل ﷺ-، حين ينفخ في الصور ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الأرض.

[٤٢] ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾؛ أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر علىٰ كل شيء.

[٤٣-٤٤] ولهذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن الخلائق ﴿سِرَاعًا﴾؛ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم، إلىٰ موقف القيامة، ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ أي: سهل علىٰ الله؛ لا تعب فيه ولا كلفة.

[٤٥] ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك، مما يحزنك من الأذىٰ، وإذا كنا أعلم بذلك؛ فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك علىٰ أعدائك، فليفرح قلبُك، ولتطمئن نفسُك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف، من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسِّي بأولي العزم، من رسل الله، ﴿وَمَآ

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: مسلَّط عليهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾[الرعد]، ولهذا قال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والتذكير هو تذكير ما تقرَّر في العقول والفِطر؛ من محبة الخير وإيثاره، وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكّر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد، ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره، إقامة الحجّة عليه، لئلا يقول: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩].

آخر تفسير سورة (ق) والحمد لله أوَّلا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

٥١- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾

وَهِي مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذاريات]

[١-٦] هذا قسم من الله الصادق في قيله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع، ما جعل علىٰ أنّ وعده صدق، وأنّ الدِّين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة علىٰ الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلِمَ يكذِّب به المكذبون، ويُعرض عن العمل له العاملون.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾: هي الرياح التي تذروا، في هبوبها ﴿ذَرۡوٗا﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾: هي السّحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به العباد والبلاد.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾: النُّجوم، التي تجري علىٰ وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السَّمٰوات، ويهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ويُنتفع بالاعتبار بها.

وَ﴿ٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكلٌّ منهم قد جعله الله علىٰ تدبير أمرٍ من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدىٰ ما حُدَّ له وقُدِّر له ورُسم، ولا ينقص منه.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات]

[٧] أي: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ﴾ الطرائق الحسنة، التي تشبه حُبك الرمال، ومياه الغُدران، حين يحركها النسيم.

[٨] ﴿إِنَّكُمۡ﴾؛ أيها المكذِّبون لمحمد ﷺ، ﴿لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ منكم من يقول: ساحر، ومنكم من يقول: كاهن، ومنكم من يقول: مجنون، إلىٰ غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة علىٰ حيرتهم

وشكهم، وأنَّ ما هم عليه باطل.

[٩] ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلافُ قولهم دليل علىٰ فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ متفَق يصدق بعضه بعضًا، لا تناقض فيه، ولا اختلاف، وذلك دليل علىٰ صحته، وأنه من عند الله فـ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات]

[١٠] يقول تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾؛ أي: قاتل الله الذين كذبوا علىٰ الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليُدحضوا به الحق، الذين يقولون علىٰ الله ما لا يعلمون.

[١١] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾؛ أي: في لجة من الكفر، والجهل، والضلال، ﴿سَاهُونَ﴾.

[١٢] ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ علىٰ وجه الشكِّ والتَّكذيب ﴿أَيَّانَ﴾ [يبعثون أي: متىٰ يبعثون]، مستبعدين لذلك.

[١٣-١٤] فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾؛ أي: يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خُبث الباطن والظاهر، ويقال لهم: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء الذي صيرهم إلىٰ الكفر والضلال، ﴿هَٰذَا﴾ العذاب الذي وصلتم إليه، هو ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فالآن تمتَّعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال، والسُّخط والوبال.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

[١٥] يقول تعالىٰ في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التي وصلوا بها إلىٰ ذلك الجزاء: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين كانت التقوىٰ شعارهم، وطاعة الله دثارهم، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ مشتملات علىٰ جميع أصناف الأشجار، والفواكه، التي يوجد لها نظير في الدُّنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلىٰ مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر علىٰ قلب بشر، ﴿وَعُيُونٍ﴾: سارحة، تشرب منها تلك البساتين، و﴿يَشْرَبُ

بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦﴾ [الإنسان].

[١٦] ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ يحتمل أن المعنىٰ أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قرَّت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلا ولا يبغون عنه حولًا، وكل قد ناله من النعيم، ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتَّقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي، أي: قد تلقوها بالرحب، وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به، بالامتثال علىٰ أكمل الوجوه، ولما نهىٰ عنه، بالانزجار عنه لله، علىٰ أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي، هو أفضل العطايا، التي حقُّها، أن تتلقىٰ بالشكر لله عليها، والانقياد.

والمعنىٰ الأوّل، ألصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلىٰ النعيم ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلىٰ عباد الله ببذل النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه البر وطرق الخيرات.

حتىٰ إنه يدخل في ذلك: الإحسان بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلىٰ المماليك، والبهائم المملوكة، وغير المملوكة.

[١٧] ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق: صلاة الليل، الدالة علىٰ الإخلاص، وتواطئ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُواْ﴾؛ أي: المحسنون ﴿قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾؛ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل، قليلا، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع.

[١٨] ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ التي هي قُبيل الفجر ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ الله تعالىٰ، فمدوا صلاتهم إلىٰ السَّحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالىٰ، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالىٰ في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران].

[١٩] ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾؛ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا [يسألونهم].

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات]

[٢٠] يقول تعالىٰ داعيًا عباده إلىٰ التفكُّر والاعتبار: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾؛ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها، من جبال وبحار، وأنهار، وأشجار، ونبات= تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، علىٰ عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه، بالظواهر والبواطن.

[٢١] وكذلك في نفس العبد من العِبر والحكمة والرحمة ما يدل علىٰ أنَّ الله واحد أحد فرد صمد، وأنه لم يخلق الخلق سدًىٰ.

[٢٢] وقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾؛ أي: مادة رزقكم، من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي، [وما توعدونه] من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله، كسائر الأقدار.

[٢٣] فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهًا، ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالىٰ علىٰ أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك، بأظهر الأشياء لنا وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ فكما أنكم لا تشكون في نطقكم، فكذلك ينبغي ألّا يعتريكم الشك في البعث والجزاء.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠ ۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٣٧﴾ [الذاريات]

[٢٤] يقول تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾؛ أي: أما جاءك ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ ونبؤهُم الغريب العجيب، وهم: الملائكة، الذين أرسلهم الله، لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور علىٰ إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف.

[٢٥] ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ﴾ مجيبًا لهم ﴿سَلَٰمٞ﴾؛ أي: عليكم ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: أنتم قوم منكرون، فأُحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

[٢٦] ولهذا ﴿رَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾؛ أي: ذهب سريعًا في خِفية، ليحضر لهم قِراهم، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾.

[٢٧] ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ وعرض عليهم الأكل، فـ ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

[٢٨] ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ حين رأىٰ أيديهم لا تصل إليه، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۖ﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ وهو: إسحاق عليه السلام.

[٢٩] ﴿فَـ﴾لما سمعت المرأة البشارة ﴿أَقۡبَلَتِ﴾ فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَّةٖ﴾؛ أي: صيحة ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجري للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾؛ أي: أنَّىٰ لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلا فثم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود في قولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود].

[٣٠] ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾؛ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالىٰ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسِع كل شيء علمًا فسلموا لحكمه، واشكروه علىٰ نعمته.

[٣١] ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ أي: قال لهم إبراهيم عليه السلام: ما شأنكم أيها المرسلون، وماذا تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

[٣٢] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا بإشراكهم بالله، وتكذيبهم لرسولهم، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين.

[٣٣-٣٤] ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ أي: معلَّمة، علىٰ كل حجرٍ اسم صاحبه؛ لأنهم أسرفوا، وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقيل له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود].

[٣٥-٣٦] ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

[٣٧] ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب،

وأن رسله صادقون مصدوقون.

فصل
في ذكر بعض ما تضمنته
هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة قصُّ الله علىٰ عباده نبأ الأخيار والفجّار ليعتبروا بهم وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضيلة إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته، بما يدل علىٰ الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمدًا وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، علىٰ وجهِ المدح والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول، والفعل؛ لأن الله وصف أضياف إبراهيم، بأنهم مكرمون، أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة، قولا وفعلا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالىٰ.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام قد كان بيته، مأوىٰ للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب، في ابتداء السلام فرد عليهم إبراهيم سلامًا، أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتىٰ به جملةً اسمية، دالة علىٰ الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرُّف من جاء إلىٰ الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال؛ لأن في ذلك، فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولم يقل: (أنكرتكم) وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفىٰ.

ومنها: المبادرة إلىٰ الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِرىٰ أضيافه.

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة؛ بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أنَّ ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به علىٰ خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته معدًّا، لا يحتاج إلىٰ أن يأتي به من السوق، أو الجيران، أو غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وسيد من ضيَّف الضيفان.

ومنها: أنه قرّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجعله في موضع، ويقول لهم: " تفضلوا، أو ائتوا إليه"؛ لأن هذا أيسر [عليهم] وأحسن.

ومنها: حُسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: (كلوا) ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولىٰ منها، بل أتىٰ بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أو: (ألا تتفضلون أو تشرفوننا وتحسنون إلينا) ونحو ذلك.

ومنها: أن من خاف من الإنسان لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمِّن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البِشارة السارة، بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتىٰ جرىٰ منها ما جرىٰ، من صك وجهها، وصرتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليم.

وقوله تعالىٰ:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾ [الذاريات]

[٣٨] أي: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ وما أرسله الله به ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وملئه، بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم.

[٣٩] فلما أتىٰ موسىٰ بذلك السلطان المبين، ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾؛ أي: أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدحوا فيه أعظم القدح؛ فقالوا: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾؛ أي: إنَّ موسىٰ لا يخلو: إما أن يكون ساحرا وما أتىٰ به شعبذة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونًا؛ لا يؤخذ بما صدر منه، لعدم عقله.

هذا، وقد علموا -خصوصًا فرعون- أن موسىٰ صادق؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقال موسىٰ لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] الآية.

[٤٠] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: مذنب، طاغ، عاتٍ علىٰ الله، فأخذه الله عزيز مقتدر.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات]

[٤١] أي: ﴿وَ﴾ آية لهم ﴿فِى عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾؛ أي: التي لا خير فيها، حين كذَّبوا نبيهم هودا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٤٢] ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾؛ أي: كالرِّمم البالية؛ فالذي أهلكهم علىٰ قوتهم وبطشهم دليلٌ علىٰ كمال قوَّته واقتداره، الذي لا يُعجزه شيء، المنتقم ممَّن عصاه.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات]

[٤٣] أي: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ آية عظيمة حين أرسل الله إليهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذَّبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرةً، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا ونفورًا؛ ﴿قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

[٤٤] ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ عقوبتهم بأعينهم.

[٤٥] ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات]

[٤٦] أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وفسقوا عن أمر الله، فأرسل اللهُ عليهم السماء والأرض بماءٍ منهمر، فأغرقهم [الله تعالىٰ] عن آخرهم، ولم يُبق من الكافرين ديَّارًا، وهذه عادة الله وسنَّته فيمن عصاه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ

ﱡﭐ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﱠ [الذاريات]

[٤٧] يقول تعالىٰ مبيِّنًا لقدرته العظيمة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾؛ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها.

﴿بِأَيۡيْدٖ﴾؛ أي: بقوَّة وقُدرة عظيمة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنَّا لموسعون أيضا علىٰ عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرِّزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يُغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريَّات.

[٤٨] ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾؛ أي: جعلناها فراشًا للخلْق، يتمكَّنون فيها من كلِّ ما تتعلَّق به مصالحهم، من مساكن، وغراس، وزرع، وحرث وجلوس، وسلوك للسُّبل الموصلة إلىٰ مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش، قد يكون صالحًا للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه؛ أخبر تعالىٰ أنه مهدها أحسن مهاد علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنىٰ علىٰ نفسه بذلك؛ فقال: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾: الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته.

[٤٩] ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾؛ أي: صنفين، ذكر وأنثىٰ، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ لنعم الله التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك وحكمته؛ حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

[٥٠] فلمَّا دعا العباد النظر إلىٰ آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه؛ أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه؛ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلىٰ ما يحبُّه، ظاهرًا وباطنًا، فِرار من الجهل إلىٰ العلم، ومن الكفر إلىٰ الإيمان، ومن المعصية إلىٰ الطاعة، ومن الغفلة إلىٰ الذكر؛ فمن استكمل هذه الأمور؛ فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية المراد والمطلوب.

وسمَّىٰ الله الرجوع إليه: فرارًا؛ لأن في الرجوع إلىٰ غيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفرُّ العبد من قضائه وقدره إلىٰ قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلّا الله تعالىٰ، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: منذرٌ لكم من عذاب الله، ومخوِّفٌ بيِّن النذارة.

[٥١] ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾: هذا من الفرار إلىٰ الله؛ بل هذا أصل الفرار إليه: أن يفر العبد

من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، ممَّا عبد من دون الله، ويُخلص العبد لربه العبادة والخوف، والرجاء، والدعاء، والإنابة.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات]

[٥٢] يقول الله مسلِّيًا لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة، ما هو منزَّه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل؛ فما أرسل الله من رسول، إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

[٥٣] يقول الله تعالىٰ: هذه الأقوال التي صدرت منهم -الأولين والآخرين- هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضًا بها، فلا يستغرب بسبب ذلك اتفاقهم عليها؟ أم ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ**﴾ [البقرة:١١٨]، وكذلك المؤمنون لمَّا تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه، والسعي فيه، بادروا إلىٰ الإيمان برسلهم وتعظيمهم، وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]

[٥٤] يقول تعالىٰ آمرًا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذِّبين: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل علىٰ شأنك؛ فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدَّيت ما حُملت، وبلَّغت ما أرسلت به.

[٥٥] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والتذكير نوعان:

تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول؛ فإن الله فطر العقول علىٰ محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فهو من التذكير، وتمام التذكير أن يذكر ما في المأمور من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكّرون بذلك، ويكرر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا، ويعملوا بما تذكروه، من ذلك، وليحدث لهم نشاطًا وهمَّة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرىٰ تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرىٰ، وتقع الموعظة منهم موقعها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلىٰ].

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيره؛ بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئًا، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات]

[٥٦] هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالىٰ؛ فإن تمام العبادة متوقف علىٰ المعرفة بالله؛ بل كلما ازداد العبد معرفة بِربه؛ كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

[٥٧] فما يريد ﴿مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ﴾ يريد ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾، تعالىٰ الغني المغني عن الحاجة إلىٰ أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها.

[٥٨] ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾؛ أي: كثير الرِّزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا علىٰ الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة؛ السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريَّات؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحدٌ، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلىٰ جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلىٰ، وعصفت بهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرَّقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار؛ فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم؛ فسبحان القوي المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ [الذاريات].

[٥٩] أي: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بتكذيبهم محمدًا ﷺ، من العذاب والنَّكال ﴿ذَنُوبًا﴾؛ أي: نصيبًا وقسطًا، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ بالعذاب، فإنَّ سنة الله في الأمم واحدة، فكلُّ مكذب يدوم علىٰ تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة.

[٦٠] ولهذا توعَّدهم الله بيوم القيامة؛ فقال: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وُعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال؛ فلا مُغيث ولا منقذ لهم من عذاب الله تعالىٰ، نعوذ بالله منه.

٥٢- تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥
وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩
وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ
نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥
ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾[الطور]

[١] يقسم تعالىٰ بهذه الأمور العظيمة، المشتملة علىٰ الحكم الجليلة، علىٰ البعث والجزاء للمتقين وللمكذبين، فأقسم بالطور وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحىٰ إليه ما أوحىٰ من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلىٰ أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها علىٰ عدٍّ ولا ثمن.

[٢] ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل الكتب؛ أنزله الله محتويا علىٰ نبإ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

[٣] وقوله: ﴿فِي رَقّٖ﴾؛ أي: ورق ﴿مَّنشُورٖ﴾؛ أي: مكتوب، مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفىٰ حاله علىٰ كل عاقل بصير.

[٤] ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدىٰ الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يتعبدون فيه لربهم، ثم لا يعودون إليه إلىٰ يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة؛ كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين]، وحقيق ببيت

هو أفضل بيوت الأرض، الذي يقصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنا؛ أن يقسم الله به، ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحُرمته.

[٥] ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾؛ أي: السماء، التي جعلها الله سقفًا للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدىٰ بعلاماتها ومنارها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

[٦] ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾؛ أي: المملوء ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض علىٰ وجه الأرض، مع أن مقتضىٰ الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من علىٰ وجه الأرض، من أنواع الحيوان. وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد الذي يوقد نارا يوم القيامة، فيصير نارا تلظىٰ، ممتلئا علىٰ سعته من أصناف العذاب.

[٧] هذه الأشياء التي أقسم الله بها مما يدل علىٰ أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾؛ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

[٨] ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه؛ لأن قدرة الله تعالىٰ لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب.

[٩] ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه العذاب؛ فقال: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾؛ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاجٍ وعدم سكون.

[١٠] ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾؛ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلوّن كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك حتىٰ تصير مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المُزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدميِّ الضعيف!؟

[١١] ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة، وحزن، وعذاب، وخوف.

[١٢] ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ أي: خوض بالباطل ولعبٍ به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب؛ بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

[١٣-١٤] ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾؛ أي: يوم يدفعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقا عنيفا،

ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخا ولوما: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

[١٥] ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب؛ كما تدل عليه سياق الآيات؛ أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع: "أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه؟ أم أنتم في الدنيا لا تبصرون" أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم؛ بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أمَّا كونه سحرا؛ فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المنافي للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون؛ فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة بقوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ إلى ما جاء به محمد ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: أفيتصوَّر مَن له عقلٌ أن يقول عنه: إنَّه سحرٌ، وهو أعظم الحقِّ وأجلُّه، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا.

[١٦] ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾؛ أي: ادخلوا النار على وجهٍ تحيط بكم، وتشمل أبدانكم وتطلع على أفئدتكم؛ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئا، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها، وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطور]

[١٧] لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين؛ ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لربهم: الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾؛ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة،

والأنهار المتدفقة، والقصور المُحدقة، والمنازل المزخرفة، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ وهذا شاملٌ لنعيم القلب والروح والبدن.

[١٨] ﴿فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: معجبين به، متمتعين علىٰ وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، و﴿لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه.

[١٩] ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾؛ أي: مما تشتهيه أنفسكم، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: متهنئين بذلك علىٰ وجه البهجة والفرح والسرور والحبور، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة.

[٢٠] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء: هو الجلوس علىٰ وجه التمكُّن والراحة والاستقرار، والسُّرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة؛ ليدل ذلك علىٰ كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، وملاطفة بعضهم بعضًا، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال من المآكل والمشارب اللذيذة، والمجالس الحسنة الأنيقة؛ لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور إلا بهن، فذكر تعالىٰ أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافا وخلقا وأخلاقا، ولهذا قال: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهاءها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير شوقًا إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور]

[٢١] وهذا من تمام نعيم أهل الجنة: أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان؛ أي: الذين

لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعًا لهم بالإيمان، ومن باب أولىٰ؛ إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر من أنفسهم، فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك؛ لا يَنقص الله الآباء من أعمالهم شيئًا، ولما كان ربَّما توهَّم متوهمٌ: أن أهل النار كذلك يُلحق الله بهم ذريتهم؛ أخبر أنه ليس حكم الدَّارين حكما واحدا، فإن النار دار العدل؛ ومن عدله تعالىٰ ألَّا يعذب أحدا إلا بذنب؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ أي: مُرتهن بعمله؛ فلا تزر وازرة وزر أخرىٰ، ولا يُحمل علىٰ أحد ذنب أحد. فهذا اعتراض من فوائده إزالة هذا الوهم المذكور.

[٢٢] وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم﴾؛ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بِفَـٰكِهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة، الزائدة علىٰ ما به يتقوَّتون، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحوم الطير وغيرها.

[٢٣] ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ أي: تدور كاسات الرَّحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوفُ عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق، [وكأس] (١) ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾؛ أي: ليس في الجنة كلام لغو؛ وهو الذي لا فائدة فيه، ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾؛ وهو الذي فيه إثمٌ ومعصية، وإذا انتفىٰ الأمران ثبت الأمر الثالث؛ وهو أن كلامهم فيها: سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرحٌ للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم إلا ما يقر أعينهم، ويدل علىٰ رضاه عنهم ومحبته لهم.

[٢٤] ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: خدمٌ شباب، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء أشغالهم، وهذا يدل علىٰ كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم.

[٢٥] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها.

[٢٦] ﴿قَالُوٓا۟﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلىٰ ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾؛ أي: في دار الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين وجِلين، فتركنا من خوفه الذُّنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

[٢٧] ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ أي: العذاب الحار الشديد

(١) ساقطة من نسخة دار ابن حزم.

حرّه.

[٢٨] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلىٰ النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات وندعوه في سائر الأوقات، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فمن برّه بنا ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ
٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ أَمۡ
يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ
شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ
أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ
وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١
أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ
٤٣﴾ [الطور]

[٢٩] يأمرالله تعالىٰ رسوله ﷺ أن يذكِّر الناس مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة الله علىٰ الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وألّا يبالي بقول المشركين المكذِّبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدُّون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفىٰ عنه كل نقصٍ رموه به؛ فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: منه ولطفه، ﴿بِكَاهِنٖ﴾؛ أي: له رِئي من الجن يأتيه بخبر بعض الغيوب؛ التي يضم إليها مائة كذبة، ﴿وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ فاقد العقل، بل أنت أكمل الناس عقلا وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقًا، وأجلُّهم، وأكملهم.

[٣٠] وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٞ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: **﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾** [يس:٦٩]، ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾؛ أي: ننتظر به الموت، فيبطل أمره، ونستريح منه.

[٣١] ﴿قُلۡ﴾ لهم جوابا لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ نتربّص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

[٣٢] ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾؛ أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي

قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام، التي هذه نتائجها وهذه ثمراتها؛ فإنّ عقولا جعلت أكمل الخلق عقلا مجنونا، وجعلت أصدق الصدق وأحق الحق كذبا وباطلا لهي العقول التي ينزه المجانين عنها، أم الذي حملهم علىٰ ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد يقف عليه، فلا يُستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

[٣٣] ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾؛ أي: تقوَّل محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟ ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلو آمنوا لم يقولوا ما قالوا.

[٣٤] ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ إنّه تقوَّله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحدّاكم أن تأتوا بمثله، فتصدُق معارضتكم أو تقِرُّوا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا علىٰ معارضته والإتيان بمثله، فحينئذٍ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مقتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

[٣٥] ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ وهذا استدلالٌ عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدِّين.

وبيان ذلك: أنهم مُنكرون لتوحيد الله، مكذِّبون لرسوله، وذلك مستلزمٌ لإنكار أن الله خلقهم، وقد تقرَّر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

* إما أنهم ﴿خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾؛ أي: لا خالق خلقهم؛ بل وُجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

* ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم، وهذا أيضًا محال؛ فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه.

* فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما؛ تعين القسم الثالث: أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، عُلم أن الله تعالىٰ هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالىٰ.

[٣٦] وقوله: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ وهذا استفهام يدل علىٰ تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السَّمٰوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدا. ﴿بَل﴾ المكذِّبون ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: ليس عندهم علم تام ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

[٣٧] ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾؛ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطوا من يشاؤون ويمنعوا من يشاؤون؟ أي: فلذلك حجروا علىٰ الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله

محمدا ﷺ، وكأنهم الوُكلاء المفوّضون علىٰ خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفعٌ ولا ضر، ولا موت ولا حياة ولا نشور، ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزُّخرُف:٣٢].

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾؛ أي: المتسلطون علىٰ خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

[٣٨] ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾؛ أي: ألهم اطلاع علىٰ الغيب، واستماع له بين الملإ الأعلىٰ، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟ ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾ المدعي لذلك ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وأنَّىٰ له ذلك؟ والله تعالىٰ عالم الغيب والشهادة؛ فلا يُظهر علىٰ غيبه أحدا إلا من ارتضىٰ من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به؛ من توحيد الله، ووعده، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذِّبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأيُّ المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصًا والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين علىٰ ما أخبر به، ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا علىٰ ما ادَّعوه شبهة، فضلا عن إقامة حجة؟!

[٣٩] وقوله: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾ كما زعمتم، ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾: فتجمعون بين المحذورين؛ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟!

[٤٠] ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ يا أيها الرسول ﴿أَجۡرٗا﴾ علىٰ تبليغ الرسالة، ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ ليس الأمر كذلك؛ بل أنت الحريص علىٰ تعليمهم، تبرعًا من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، علىٰ قبول رسالتك، والاستجابة لأمرك ودعوتك، وتُعطي المؤلفة قلوبهم ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم.

[٤١] ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا علىٰ ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب، وقد عُلم أنهم الأمة الأمية الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب علىٰ ما لم يطَّلع عليه أحدا من الخلق، وهذا كله إلزامٌ لهم بالطرق العقلية والنقلية علىٰ فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

[٤٢] وقوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ﴾ بقدحهم فيك وفيما جئت به ﴿كَيۡدٗاۖ﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك -ولله الحمد- فلم يبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئا إلا فعلوه، فنصر الله نبيه عليهم وأظهر دينه، وخذلهم وانتصر منهم.

[٤٣] ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: ألهم إله يدعىٰ ويرجىٰ نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالىٰ؟ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوىٰ الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأنَّ ما عليه المشركون هو الباطل، وأنَّ الذي ينبغي أن يعبد ويصلىٰ له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصِّفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يُرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطور]

[٤٤] يقول تعالىٰ في ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا عن الحق وعسوا علىٰ الباطل، وأنه لو قام علىٰ الحق كل دليل؛ لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾؛ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف؛ أي: قطع كبار من العذاب ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ أي: هذا سحاب متراكم علىٰ العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها.

[٤٥] وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم فيه من العذاب، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره.

[٤٦] ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: لا قليلا ولا كثيرا، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنًا قليلا فيوم القيامة يضمحلّ كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور]

[٤٧] لما ذكر اللهُ عذابَ الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذابا قبل عذاب يوم القيامة وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فلذلك أقاموا علىٰ ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

[٤٨-٤٩] ولمَّا بيَّن تعالىٰ الحجج والبراهين علىٰ بطلان أقوال المكذِّبين، أمر رسوله ﷺ ألَّا يعبأ بهم شيئا، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي؛ بلزومه والاستقامة عليه، ووعده الله الكفاية؛ بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ﴾؛ أي: بمرأىٰ منَّا وحفظ واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين علىٰ الصبر بالذِّكر والعبادة؛ فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ أي: من الليل؛ ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلىٰ الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور، والحمد لله.

٥٣- تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا
وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨
فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ
عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ
يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم]

[١] يقسم تعالىٰ بالنجم عند هويه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة ما أوجب أنْ أقسم به، والصحيح أن النجم: اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم علىٰ صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك مناسبةً عجيبة؛ فإن الله تعالىٰ جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم.

[٢] والمقسَم عليه: تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتديا في علمه، هاديا، حسن القصد، ناصحا للخلق بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وسوء القصد.

وقال: ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ لينبههم علىٰ ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنّه لا يخفىٰ عليهم أمره.

[٣-٤] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾؛ أي: ليس نطقُه صادرا عن هوىٰ نفسه ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾؛ أي: لا يتّبع إلا ما أوحىٰ الله إليه من الهدىٰ والتقوىٰ، في نفسه وفي غيره.

ودلَّ هذا علىٰ أنَّ السُّنّة وحيٌ من الله لرسوله ﷺ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، وأنه معصومٌ فيما يخبر به عن الله تعالىٰ وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوىٰ، وإنما يصدر عن وحيٍ يوحىٰ.

[٥] ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ؛ وهو: جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾؛ أي: نزل بالوحي علىٰ الرسول ﷺ جبريلُ عليه السلام، ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾؛ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي علىٰ تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قويٌّ علىٰ إيصال الوحي إلىٰ الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

[٦] ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ جبريل عليه السلام.

[٧] ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ أي: أفق السماء الذي هو أعلىٰ من الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

[٨] ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ، لإيصال الوحي إليه. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ عليه من الأفق الأعلىٰ.

[٩] ﴿فَكَانَ﴾ في قُرْبِه منه ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾؛ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾؛ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدلُّ علىٰ كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرِّسالة؛ وأنّه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السّلام.

[١٠] ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ محمّد ﷺ، ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾؛ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

[١١-١٢] ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾؛ أي: اتّفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته علىٰ الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سَمعه وبصره وقلبه، وهذا دليلٌ علىٰ كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقيًا لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤادُه ما رأىٰ بصرُه، ولم يشك في ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك ما رأىٰ ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه تيقَّنه حقا بقلبه ورؤيته، هذا هو الصّحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إنَّ المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربّه ليلة الإسراء، وتكليمه إيّاه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرّسول ﷺ لربّه في الدنيا.

ولكن الصَّحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السِّياق، وأنَّ محمدا ﷺ رأىٰ

جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرّتين: مرة في الأفق الأعلىٰ، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ.

[١٣-١٤] ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؛ أي: رأىٰ محمدٌ جبريل مرة أخرىٰ، نازلا إليه.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وهي شجرة عظيمة جدا، فوق السماء السابعة، سُمِّيت سدرة المنتهىٰ، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم المخلوقات إليها؛ أي: لكونها فوق السَّمٰوات والأرض، فهي المنتهىٰ في [علوِّها] أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأىٰ محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محلّ الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

[١٥] عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلا تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليلٌ علىٰ أن الجنة في أعلىٰ الأماكن، وفوق السماء السابعة.

[١٦] ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

[١٧] ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ أي: ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامُه عليه، أن قام مقامًا أقامه الله فيه، ولم يقصُر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإنَّ الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما ألَّا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به علىٰ وجه التفريط، أو علىٰ وجه الإفراط، أو علىٰ وجه الحَيْدة يمينا وشمالا، وهذه الأمور كلها منتفيةٌ عنه ﷺ.

[١٨] ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أُسري به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾ [النجم]

[١٩-٢٠] لما ذكر تعالىٰ ما جاء به محمَّد ﷺ من الهُدىٰ ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده= ذكر بطلان ما عليه المُشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنىٰ، سمَّاها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقُّها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضُّلال، فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سمَّوها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصافٍ هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و«العزىٰ» من «العزيز»، و«مناة» من «المنان» إلحادًا في أسماء الله وتجريا علىٰ الشرك به، وهذه أسماء متجرّدة من المعاني، فكل من له أدنىٰ مُسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

[٢١] ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾؛ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

[٢٢] ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾؛ أي: ظالمةٌ جائرة، وأيُّ ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق علىٰ الخالق؟ تعالىٰ عن قولهم علوًّا كبيرا.

[٢٣] وقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ أي: من حجّة وبرهان علىٰ صحة مذهبكم، وكلُّ أمرٍ ما أنزل الله [به] من سلطان، فهو باطلٌ فاسد، لا يُتخذ دينا، وهم -في أنفسهم- ليسوا بمتَّبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلَّهم علىٰ قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفُسهم من الشرك، والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدىٰ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ أي: الذي يُرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلّها قد بيّنها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله علىٰ المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتِّباعه، فلم يبق لأحدٍ عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه: غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء علىٰ هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم.

[٢٤-٢٥] ومع ذلك يتمنّون الأماني، ويغترون بأنفسهم، ولهذا أنكر تعالىٰ علىٰ من زعم أنه يحصل له ما تمنَّىٰ وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فيعطِي منهما من

يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعًا لأمانيِّهم، ولا موافقا لأهوائهم.

﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم]

[٢٦] يقول تعالىٰ منكِرًا علىٰ من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة المقرَّبين، وكرام الملائكة، ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾؛ أي: لا تُفيد من دعاها وتعلّق بها ورجاها، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾؛ أي: لا بد من اجتماع الشَّرطين: إذنه تعالىٰ في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرّر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه الله، موافقًا فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذًا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، [وقد] سدُّوا علىٰ أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم]

[٢٧] يعني أنَّ المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا علىٰ ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بناتُ الله» فلم ينزِّهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلُّوهم عن تسميتهم إياهم إناثا، والحال أنَّه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلَّت علىٰ ذلك الفطر والعقول؛ بل العلم كله دال علىٰ نقِيض قولهم، وأن الله منزَّهٌ عن الأولاد والصاحبة؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأن الملائكة كرامٌ مقربون إلىٰ الله، قائمون بخدمته ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم].

[٢٨] والمشركون إنَّما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلّة القاطعة والبراهين السّاطعة.

[٢٩] ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرَضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم= أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولىٰ عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم،

والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهىٰ إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعي هؤلاء مقصورٌ علىٰ الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصّلوها، وبأي: طريق سنحت ابتدروها.

[٣٠] ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾؛ أي: هذا منتهىٰ علمهم وغايته، وأمَّا المؤمنون بالآخرة، المصدِّقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلّها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالىٰ أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممّن لا يستحق ذلك فيكله إلىٰ نفسه، ويخذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فيضعُ فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم]

[٣١] يخبر تعالىٰ أنَّه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع ما فيهما ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدرُه، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم علىٰ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيُثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساؤوا العمل من سيئات الكفر فما دونه من المعاصي وبما عملوه من أعمال الشَّر بالعقوبة الفضيعة.

﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ عن عبادة الله تعالىٰ، وأحسنوا إلىٰ خلق الله، بأنواع المنافع ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجلُّه رضا ربهم، والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

[٣٢] ثم ذكر وصفهم؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾؛ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركُها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرّمات الكبار من الزنىٰ، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذُّنوب العظيمة، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصرّ صاحبها عليها، أو التي يلمّ العبد بها، المرة بعد المرة، علىٰ وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجًا للعبد من أن يكون من المحسنين، فإنَّ هذه مع الإتيان بالواجبات وترك

المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كلَّ شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فلولا مغفرته لهلكَت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء علىٰ الأرض، ولما ترك علىٰ ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، مكفِّرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر**».

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: هو تعالىٰ أعلم بأحوالكم كلِّها، وما جبلكم عليه، من الضَّعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدَّواعي إلىٰ فعل المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضَّعف موجود مشاهد منكم حين أخرجكم الله من الأرض، وإذ كُنتم في بطون أمهّاتكم، ولم يزل موجودًا فيكم، وإن كان الله تعالىٰ قد أوجد فيكم قوَّةً علىٰ ما أمركم به، ولكن الضّعف لم يزل، فلعلمه تعالىٰ بأحوالكم هذه ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمَّدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويُزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصًا إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربِّه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرُب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإنّ الله تعالىٰ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربِّه قريبًا، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيبا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تخبرون الناس بطهارتها علىٰ وجه التمدَّح عندهم.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإنَّ التقوىٰ محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي علىٰ ما فيه من بر وتقوىٰ، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئًا.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ
يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ
لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ
وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ
رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ
أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ [النجم]

[٣٣-٣٥] يقول تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ قُبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولّىٰ عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه؛ بل يبخل ويكدىٰ ويمنع.

فإنَّ الإحسان ليس سجية له وطبعا؛ بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت علىٰ فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ الغيب فيخبر به، أم هو متقوِّلٌ علىٰ الله، متجرئ عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية كما هو الواقع؛ لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قُدِّر أنه ادعىٰ ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي علىٰ يد النبيِّ المعصوم، تدل علىٰ نقيض قوله، وذلك دليلٌ علىٰ بطلانه.

[٣٦-٣٧] ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ هذا المدَّعي ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؛ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدِّين وفروعه.

[٣٨-٤١] وفي تلك الصُّحف أحكام كثيرة من أهمِّها ما ذكره الله بقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾؛ أي: كلُّ عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمل أحدٌ عن أحد ذنبا.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في الآخرة فيميز حسَنه من سيئه، ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ أي: المستكمِل لجميع العمل الحسن الخالص الحسن بالحسنىٰ، والسيئ الخالص بالسوأىٰ، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلّها، وتحمد اللهَ عليه، حتىٰ إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربِّهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنَّهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شرَّ الموارد، وقد استدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ من يرىٰ أنَّ القُرَب لا يجوز إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا: لأن الله قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فوصول سعي غيره إليه منافٍ لذلك، وفي هذا الاستدلال نظرٌ، فإن الآية إنما تدل علىٰ أنه ليس للإنسان إلا ما سعىٰ بنفسه، وهذا حقٌّ لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدلُّ علىٰ أنه لا ينتفع بسعيِ غيره، إذا أهداه ذلك

الغير إليه، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في مُلكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، ألَّا يملك ما وهبه الغير له من ماله الذي يملكه.

[٤٢] وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلىٰ الله المنتهىٰ في كلِّ حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات.

[٤٣] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسُّرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

[٤٤] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾؛ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيُعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدُّنيا.

[٤٥-٤٦] ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فسَّرهما بقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها، ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ وهذا من أعظم الأدلة علىٰ كمال قُدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماءٍ مهين، ثم نمَّاها وكملها، حتىٰ بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلىٰ أرفع المقامات في أعلىٰ عليِّين، وإما إلىٰ أدنىٰ الحالات في أسفل سافلين.

[٤٧] ولهذا استدلَّ بالبداءة علىٰ الإعادة، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم علىٰ الحسنات والسيِّئات.

[٤٨] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أغنىٰ العباد بتيسير أمر معاشهم من التِّجارات وأنواع المكاسب، من الحِرَف وغيرها، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثيرٍ من الأعيان، وهذا من نعمه تعالىٰ أن أخبرهم أن جميع النعم منه، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له.

[٤٩] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾؛ وهو: النجم المعروف بالشِّعرىٰ العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذِّكر، وإن كان رب كل شيء؛ لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالىٰ أن جنس ما يعبد المشركون مربوب مدبر مخلوق، فكيف [تتخذ] مع الله آلهة.

[٥٠] ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم: قوم هود ﷺ حين كذَّبوا هودًا، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

[٥١] ﴿وَثَمُودَاْ﴾ قوم صالح ﷺ، أرسله الله إلىٰ ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالىٰ، ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ منهم أحدا؛ بل أبادهم عن آخرهم.

[٥٢] ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم.

[٥٣-٥٤] ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ وهم قوم لوط ﷺ ﴿أَهۡوَىٰ﴾؛ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذّب به أحدًا من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجّيل، ولهذا قال: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾؛ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشىٰ؛ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

[٥٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾؛ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالىٰ، ولا يدفع النِّقم إلّا هو.

[٥٦] ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾؛ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل؛ بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلىٰ ما دعا إليه، فلأيِّ شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه أعلىٰ أخلاق الرسل الكرام، أليس يدعو إلىٰ كل خيرٍ وينهىٰ عن كل شر؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذَّب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذِّبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتَّقين، وقائد الغُرِّ المحجلين؟

[٥٧] ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾؛ أي: قرُبت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها؛ ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾؛ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

[٥٨] ثم توعَّد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال:

[٥٩] ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجَّبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدّث صدق، وإذا قال قولا فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل علىٰ جبلٍ لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأيًا وعقلا وتسديدا وثباتا، وإيقانا وإيمانا؛ بل الذي ينبغي العجب من عقل من تعجَّب منه، وسَفْهِه وضلاله.

[٦٠] ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾؛ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أنَّه الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعا لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتا لأخباره الصادقة الحسنة.

[٦١] ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾؛ أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كُنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب.

[٦٢] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾ الأمر بالسجود لله خصوصا، ليدلّ علىٰ فضله وأنه سر العبادة ولبها، فإن روحها الخشوع لله والخضوع له، والسُّجود هو أعظم حالةٍ يخضع بها العبد فإنه يخضع قلبُه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه علىٰ الأرض المهينة موضع وطء الأقدام، ثم أمر بالعبادة عموما الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم.

والحمد لله الذي لا نُحصي ثناء عليه؛

بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده،

وصلىٰ الله علىٰ محمَّد وسلَّم تسليما كثيرا.

٥٤- تفسير سورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾

وهي مكيّة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر]

[١] يخبر تعالىٰ أنَّ الساعة -وهي: القيامة- اقتربت وآنَ أوانها، وحان وقتُ مجيئها، ومع هذا فهؤلاء المكذِّبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدِّين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدّالة علىٰ وقوعها ما يؤمن علىٰ مثله البشر، فمِن أعظم الآيات الدَّالة علىٰ صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنَّه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدلُّ علىٰ صحة ما جاء به وصدقِه، أشار ﷺ إلىٰ القمر فانشقّ بإذن الله فانشق فلقتين: فلقة علىٰ جبل أبي قبيس، وفلقة علىٰ جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية العظيمة الكائنة في العالم العُلوي، التي لا يقدر الخلق علىٰ التمويه بها والتخييل.

فشاهدوا أمرا ما رأوا مثله؛ بل ولم يسمعوا أنه جرىٰ لأحدٍ من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يُرد الله بهم خيرًا، ففزعوا إلىٰ بَهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من ورد إليكم من السّفر، فإنه [و]إن قدر علىٰ سحركم، لا يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبروهم بوقوع ذلك؛ فقالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ سحرنا محمَّدٌ وسحر غيرنا، وهذا من البَهت، الذي لا يروج إلَّا علىٰ أسفه الخلق وأضلهم عن الهدىٰ والعقل.

[٢] وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها؛ بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب والرد لها؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ ولم يعد الضمير علىٰ انشقاق القمر؛ فلم يقل: وإن

يروها؛ بل قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ فليس قصدُهم اتباع الحق والهدىٰ، وإنما مقصودهم اتِّباع الهوىٰ.

[٣] ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠]، فإنه لو كان قصدهم اتِّباع الهدىٰ، لآمنوا قطعا، واتبعوا محمدًا ﷺ، لأنه أراهم اللهُ علىٰ يديه من البيِّنات والبراهين والحجج القواطع، ما دل علىٰ جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشَّرعية، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: إلىٰ الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلىٰ آخره، فالمصدِّق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذِّب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالدًا مخلدا أبدا.

[٤] وقال تعالىٰ -مبيِّنا أنهم ليس لهم قصد صحيح، واتباع للهدىٰ-: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظّاهرة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: زاجرٌ يزجرهم عن غيهم وضلالهم.

[٥] وذلك ﴿حِكْمَةٌۢ﴾ منه تعالىٰ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾؛ أي: لتقوم حجَّته علىٰ العالمين، ولا يبقىٰ لأحدٍ علىٰ الله حجة بعد الرسل، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ لا يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر]

[٦] يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ: قد بان أنَّ المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلَّا الإعراض عنهم والتولي عنهم، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وانتظر بهم يومًا عظيما وهولا جسيمًا، وذلك حين ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾؛ أي: إلىٰ أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرا أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيلُ نفخةً يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

[٧] ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ أي: من الهول والفزَع الذي وصل إلىٰ قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم، ورَوَجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾؛ أي: مبثوثٌ في الأرض، متكاثر جدًّا.

[٨] ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾؛ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي وهذا يدل علىٰ أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبُّون دعوته، ويسرعون إلىٰ إجابته، ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابُهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر]، مفهوم ذلك أنه يسيرٌ سهلٌ علىٰ المؤمنين.

﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾[القمر]

[٩] لما ذكر تبارك وتعالىٰ حال المكذِّبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تُجدي عليهم شيئا، أنذرهم وخوّفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحلَّ بهم عقابه.

فذكر قوم نوح أول رسولٍ بعثه الله إلىٰ قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾ [نوح].

ولم يزل نوح يدعوهم إلىٰ الله ليلًا ونهارا، وسرًّا وجهارا، فلم يزدهم ذلك إلا عنادا وطغيانا، وقدحا في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾ لزعمهم أنَّ ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأنَّ ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذَّبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعًا وعقلًا، فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلىٰ الهدىٰ والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مُبين، وقوله: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾؛ أي: زجره قومُه وعنَّفوه لمَّا دعاهم إلىٰ الله تعالىٰ، فلم يكفِهم -قبحهم الله- عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إيَّاه، حتىٰ أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم.

[١٠] فعند ذلك دعا نوحٌ ربه فقال: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ لا قدرة لي علىٰ الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم علىٰ مقاومة قومهم، ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ اللَّهُمَّ لي منهم، وقال في الآية

الأخرىٰ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] الآيات.

[١١] فأجاب الله سؤاله، فانتصر له من قومه، قال تعالىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾؛ أي: كثير جدا متتابع.

[١٢] ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماءُ ينزل منها من الماء شيءٌ خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتىٰ التّنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلًا عن كونه منبعا للماء، لأنه موضع النار.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك، ﴿قَدْ قُدِرَ﴾؛ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبةً لهؤلاء الظالمين الطاغين

[١٣] ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أي: ونجَّينا عبدنا نوحا علىٰ السفينة ذات الألواح والدُّسر؛ أي: المسامير التي قد سُمرت بها ألواحها وشُدّ بها أسرها.

[١٤] ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعايةٍ من الله، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر، وكلاءةٍ منه تعالىٰ، وهو نعم الحافظ الوكيل، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر علىٰ دعوتهم، واستمر علىٰ أمر الله، فلم يرده عنه رادٌّ، ولا صده عن ذلك صاد، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨] الآية.

ويحتمل أن المراد: أنا أهلكنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم علىٰ كفرهم وعنادهم، وهذا متوجِّه علىٰ قراءة من قرأها بفتح الكاف.

[١٥] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكَّر بها المتذكرون، علىٰ أن من عصىٰ الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أنَّ الضمير يعود إلىٰ السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليمٌ من الله لرسوله نوح ﷺ، ثم أبقىٰ اللهُ صنعتها وجنسها بين الناس؛ ليدلَّ ذلك علىٰ رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ أي: فهل من متذكر للآيات، ملقٍ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟

[١٦] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؛ أي: فكيف رأيت أيها المخاطَب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحدٍ عليه حجة.

[١٧] ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ أي: ولقد يسَّرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنىٰ، وأبينه تفسيرا، فكل من أقبل عليه يسَّر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا، أسهل العلوم، وأجلها علىٰ الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيُعان عليه ؟ ولهذا يدعو الله عباده إلىٰ الإقبال عليه والتذكُّر بقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ [القمر]

[١٨-١٩] و﴿عَادٞ﴾ هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هودا ﷺ يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته، فكذَّبوه، فأرسل الله عليهم ﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾؛ أي: شديدة جدا، ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾؛ أي: شديد العذاب والشَّقاء عليهم، ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

[٢٠] ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ من شدَّتها، فترفعهم إلىٰ جو السماء، ثم تدمغهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾؛ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعته الريح فسقط علىٰ الأرض، فما أهون الخلق علىٰ الله إذا عصَوْا أمره.

[٢١] ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كان والله العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحدٍ عليه حجة.

[٢٢] ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ كرَّر تعالىٰ ذلك رحمة بعباده وعنايةً بهم، حيث دعاهم إلىٰ ما يُصلح دنياهم وأخراهم.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾[القمر]

[٢٣] أي: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبيهم صالحا عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.

[٢٤] فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا -كِبرا وتِيها-: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؛ أي: كيف نتبع بشرا، لا ملكا منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إن اتبعناه وهو في هذه الحالة ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي: إنا لضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنِفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور.

[٢٥-٢٦] ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؛ أي: كيف يخصُّه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي مزية خصَّه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين علىٰ الله، لم يزالوا يُدلون به، ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشُّبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١] فالرسل منَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر، أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لعاجل المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود من هذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ أي: كثير الكذب والشر، فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

[٢٧] لا جرم؛ عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم؛ فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله ونعمة، يحتلبون من درّها ما يكفيهم أجمعين، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ أي: اختبارا منه لهم وامتحانا ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾؛ أي: اصبر علىٰ دعوتك إيَّاهم، وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟

[٢٨] ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: وأخبرهم أنَّ الماء أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شِرْب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويُحظر علىٰ من ليس بقسمة له.

[٢٩] ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقىٰ القبيلة ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾؛ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾.

[٣٠-٣٢] ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجىٰ الله صالحا ومن آمن معه ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾﴾[القمر]

[٣٣-٤٠] أي: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ﴾ لوطًا عليه السلام؛ حين دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا علىٰ شركهم وقبائحهم، حتىٰ إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضيافٍ حين سمع بهم قوم لوط، جاؤوا مُسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبّحهم، وراودوه عنهم.

فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيُّهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسوّمة عند ربك للمسرفين، ونجىٰ الله لوطا وأهله من الكرب العظيم، جزاءً لهم علىٰ شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]

[٤١-٤٢] أي: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسىٰ

الكليم، وأيده بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد غيرهم فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقه وجنوده في اليم.

[٤٣] والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذِّبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرىٰ عليهم؟ فإن كانوا خيرا منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرا منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: أم أعطاكم الله عهدا وميثاقا في الكتب التي أنزلها علىٰ الأنبياء، فتعتقدون حينئذٍ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع؛ بل غير ممكن عقلا وشرعا، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم علىٰ الله.

[٤٤] فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالىٰ أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾.

[٤٥] قال تعالىٰ مبينا لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتلت صناديدهم وكبراؤهم فأُذلوا به ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

[٤٦] ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾؛ أي: أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور في الخيال.

[٤٧] ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجِّيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتىٰ تبلغ أفئدتهم.

[٤٨] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألَمُها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم:

﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

[٤٩] ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وهذا شاملٌ للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالىٰ

وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقه، وخلقها بقضاء سبق به علمُه، وجرىٰ به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

[٥٠] وذلك علىٰ الله يسيرٌ، فلهذا قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۢ بِٱلۡبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

[٥١] ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم، ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

[٥٢] ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية.

[٥٣] ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾؛ أي: مسطر مكتوب، وهذه حقيقة القضاء والقدر، وأنَّ جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالىٰ، وسطّرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسانَ لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

[٥٤-٥٥] ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير هذه السورة،

والحمد لله

٥٥- تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن]

[١] هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الدال علىٰ: سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل علىٰ رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلىٰ عباده من النعم الدِّينية والدنيوية والآخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٢] فذكر أنه ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسّرها علىٰ عباده، وهذا أعظم منّة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيا بأحسن الألفاظ، وأوضح المعاني، مشتمل علىٰ كل خير، زاجر عن كل شر.

[٣-٤] ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفىٰ الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارئ تعالىٰ البديع خلقه أيَّ إتقان، وميزه علىٰ سائر الحيوانات بأن ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾؛ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النُّطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميَّز الله به الآدمي علىٰ غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه.

[٥] ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾؛ أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخَّرهما يجريان بحساب مقنن، وتقديرٍ مقدر، رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب.

[٦] ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾؛ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض= تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخضع وتنقاد لما سخَّرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

[٧-٨] ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ سقفًا للمخلوقات الأرضية، ﴿وَوَضَعَ﴾ الله ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المرادُ به الميزان المعروف وحده؛ بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تُكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تُضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصَّل بها بين المخلوقات، ويُقام بها العدل بينهم؛ ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾؛ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلىٰ عقولكم وآرائكم لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السَّمٰوات والأرض.

[٩] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ أي: اجعلوه قائمًا بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: لا تُنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجُور والظلم والطغيان.

[١٠] ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ الله علىٰ ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها، ﴿لِلۡأَنَامِ﴾؛ أي: للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مِهادًا وفراشًا يبنون بها، ويحرثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجا، وينتفعون بمعادنها وجميع ما فيها، ممَّا تدعو إليه حاجتهم؛ بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضَّرورية، فقال:

[١١] ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾؛ وهي: جميع الأشجار التي تُثمر الثمرات التي يتفكَّه بها العباد، من العنب والتين والرُّمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾؛ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القِنْوان التي تخرج شيئا فشيئا حتىٰ تتم فتكون قوتا يدخر ويؤكل، ويتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه.

[١٢] ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ أي: ذو السَّاق الذي يُداس، فيُنتفع بتِبْنِه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن، وغير ذلك، ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يحتمل أن المراد به جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميُّون، فيكون هذا من باب عَطْف العام علىٰ الخاص، ويكون الله قد امتنَّ علىٰ عباده بالقُوت والرزق، عموما وخصوصا، ويحتمل أنَّ المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأنَّ الله امتن علىٰ عباده بما يسَّره في الأرض من أنواع الروائح الطَّيِّبة، والمشام الفاخرة، التي تسُرّ الأرواح،

وتنشرح لها النفوس.

[١٣] ولمَّا ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثَّقلين، الإنس والجن، قرَّرهم تعالىٰ بنعمه، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ أي: فبأيِّ نعم الله الدينية والدنيوية تكذِّبان؟

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السُّورة، فكلّما مر بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فلَك الحمد، فهكذا ينبغي للعبد إذا تُليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يُقرّ بها ويشكر، ويحمد الله عليها.

ثم قال تعالىٰ:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ [الرحمن]

[١٤] وهذا من نِعَمه تعالىٰ علىٰ عباده، حيث أراهم من آثار قُدرته وبديع صنعته، أنْ ﴿خَلَقَ﴾ [أبا الإنس] وهو آدم ﷺ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾؛ أي: من طين مبلول قد أُحكم بله وأتقن، حتىٰ جف، فصار له صلصلةٌ وصوتٌ يشبه صوت الفخار؛ وهو: الطين المشوي.

[١٥] ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾؛ أي: [أبا] الجن؛ وهو: إبليس لعنه الله ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾؛ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدُّخان، وهذا يدل علىٰ شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطِّين والتراب، الذي هو محلُّ الرزانة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجان؛ وهو: النار التي هي محل الخِفَّة، والطيش، والشر، والفساد.

[١٦] ولما بيَّن خلق الثقلين ومادة ذلك وكان ذلك منّة منه تعالىٰ عليهم؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ [الرحمن]

[١٧-١٨] أي: هو تعالىٰ ربّ كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النَّيِّرة، وكل ما غربت عليه، وكل ما كانا فيه، فالجميع تحت تدبيره وربوبيته، وثنَّاهما هنا باعتبار مشارقها شتاء وصيفا، والله أعلم.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣﴾ [الرحمن]

[١٩-٢٣] المرادُ بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيَصُبّ العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان؛ ولكن الله تعالىٰ جعل بينهما برزخا من الأرض، حتىٰ لا يبغي أحدهما علىٰ الآخر، ويحصل النفع بكلٍّ منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرّا مسخرا للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾ [الرحمن]

[٢٤-٢٥] أي: وسخَّر تعالىٰ لعباده السُّفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من عظمها وكبرها كالأعلام؛ وهي: الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السَّمٰوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلةولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨﴾ [الرحمن]

[٢٦-٢٨] أي: كلُّ من علىٰ الأرض، من إنس وجن، ودوابٍّ، وسائر المخلوقات، يفنىٰ ويموت ويبيد، ويبقىٰ الحي الذي لا يموت؛ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظَّم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سِعَة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يُكرمه أولياؤه ويجلونه، ويعظمونه ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠﴾ [الرحمن]

[٢٩-٣٠] أي: هو الغنيُّ بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكلُّ الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفةَ عين ولا أقل من ذلك، وهو

تعالىٰ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ يُغني فقيرا، ويجبر كسيرا، ويُعطي قوما، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحِّين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهّاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسَّمٰوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالىٰ الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالىٰ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾، هي: تقاديره وتدابيره التي قدّرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالىٰ يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدِّينية التي هي الأمر والنَّهي، والقدرية التي يجريها علىٰ عباده مدَّةَ مقامهم في هذه الدار، حتىٰ إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالىٰ وأراد أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحِّدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلىٰ دار الحيوان.

وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾ [الرحمن]

[٣١-٣٢] أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾ [الرحمن]

[٣٣-٣٤] أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجِّزا لهم: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: تجدون مسلكا ومنفذا تخرجون به عن مُلك الله وسلطانه، ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾؛ أي: لا تخرجون منه إلَّا بقوة وتسلُّطٍ منكم، وكمال قدرة، وأنَّىٰ لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا، ولا ضرا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلَّم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسًا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرُّؤساء والمرءوسون، والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم فقال:

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمن]

[٣٥-٣٦] أي: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ لهبٌ صاف من النار، ﴿وَنُحَاسٌ﴾؛ وهو: اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنىٰ أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحدٍ ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطا يسوقهم به إلىٰ أعلىٰ المطالب وأشرف المواهب، ذكر منّته بذلك؛ فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرحمن]

[٣٧-٣٨] ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسُها وقمرها، وانتثرت نجومُها، ﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾؛ أي: كانت كالمُهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٣٩-٤٠] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ أي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالىٰ عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران:١٠٦].

[٤١-٤٢] وقال هنا: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: فيؤخذ بنواصي المُجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنَّما يسألهم تعالىٰ سؤال توبيخٍ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنّه تعالىٰ يريد أن تظهر للخلق حجّته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ [الرحمن]

[٤٣-٤٥] أي: يقال للمكذّبين بالوعد والوعيد حين تسعّر الجحيم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فليَهْنِهم تكذيبُهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لهم علىٰ تكذيبهم.

﴿يَطُوفُونَ﴾ بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ أي: ماء حار جدا قد انتهىٰ حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولمّا ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين فقال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن]

[٤٦-٤٧] أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهىٰ عنه، وفعل ما أمره به، له ﴿جَنَّتَانِ﴾ من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدىٰ الجنتين جزاءً علىٰ ترك المنهيات، والأخرىٰ علىٰ فعل الطاعات.

[٤٨-٤٩] ومن أوصاف تلك الجنّتين أنهما ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾؛ أي: فيهما من ألوان النّعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة.

[٥٠-٥١] وفي تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يفجرونها علىٰ ما يريدون ويشتهون.

[٥٢-٥٣] ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زَوْجَانِ﴾؛ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنوع الآخر.

[٥٤-٥٥] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ هذه صفة فُرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة، كجلوس من الملوك علىٰ الأسرّة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالىٰ، حتىٰ إن بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرق؛ وهو: أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي يباشرون؟! ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنىٰ؛ هو: الثمر المستوي؛ أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

[٥٦-٥٩] ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: قد قصرن طرفهن علىٰ أزواجهن، من حُسنهم وجمالهم، وكمال محبتهن لهم، وقصرن أيضًا طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وِصالهن وشدة محبتهن، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ أي: لم ينلهن أحد قبلهم من الإنس والجن؛ بل هن أبكار عرب، متحببات إلىٰ أزواجهن، بحسن التبعُّل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن.

[٦٠-٦١] ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾؛ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده، إلّا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المُقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقرّبين.

[٦٢-٦٩] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ من فضة بنيانهما وحليتهما وآنيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين.

وتلك الجنتان ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة والرّي.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ أي: فوارتان.

﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

[٧٠-٧٥] ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في الجنات كلها ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخَلق والخُلق.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك المخدرات

الخفرات. ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٧٦-٧٧] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم علىٰ الرفرف الأخضر؛ وهي: الفرش التي تحت المجالس العالية، التي قد زادت علىٰ مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوجٍ نسجا حسنا فاخرا، ولهذا وصفها بالحُسن الشامل، لحسن الصفة وحسن المنظر، ونعومة الملمس، وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين؛ كما نص الله علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف به الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ وفي الأخريين: ﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضّاخة.

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين.

وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾، وفي الأخريين: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ وقد عُلم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ فدلَّ ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخريتين.

ومجرّد تقديم الأوليين علىٰ الأخريين، يدل علىٰ فضلهما.

فبهذه الأوجه يُعرف فضل الأوليين علىٰ الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلهنّ في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوىٰ، حتىٰ إن كل واحد منهم لا يرىٰ أحدا أحسن حالا منه، ولا أعلىٰ من نعيمه الذي هو فيه.

[٧٨] ولمَّا ذكر سعة فضله وإحسانه، قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؛ أي: تعاظم

وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن،

ولله الحمد والشكر والثناء الحسن.

٥٦- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة]

[١-٣] يُخبر تعالىٰ بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾؛ أي: لا شك فيها؛ لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلّت عليها حكمته تعالىٰ، ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾؛ أي: خافضة لأناسٍ في أسفل سافلين، رافعة لأناسٍ في أعلىٰ عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد.

[٤-٦] ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾؛ أي: حُرِّكت واضطربت.

﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾؛ أي: فُتِّتَ.

﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ فأصبحت ليس عليها جبل ولا معلم، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه].

[٧-٩] ﴿وَكُنتُمۡ﴾ أيها الخلق ﴿أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾؛ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة.

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة؛ فقال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ أي: الشِّمال، ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تهويل لحالهم.

[١٠-١٤] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: السابقون في الدنيا إلىٰ الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقرَّبون عند الله، ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، في أعلىٰ عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها.

وهؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: جماعةٌ كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وهذا يدل علىٰ فضل صدر هذه الأمة في الجملة علىٰ متأخِّريها، لكون المقرّبين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

[١٥-١٦] ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾؛ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ، والجوهر، وغير ذلك من الحلي والزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالىٰ.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾؛ أي: علىٰ تلك السُّرر، جلوس تمكُّنٍ وطمأنينة وراحة واستقرار، ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ وجه كل منهم إلىٰ وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وتقابلها بالمحبة، وحسن أدبهم.

[١٧-١٩] ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ أي: يدور علىٰ أهل الجنة لخدمتهم وقضاء حوائجهم= ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ۝٢٤﴾ [الطور]؛ أي: مستورٌ لا يناله ما يغيِّره، مخلوقون للبقاء والخُلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون علىٰ أسنانهم.

ويدورون عليهم بآنية شرابهم ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ وهي التي لا عُرىٰ لها، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرىٰ، ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾؛ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾؛ أي: لا تصدِّعهم رؤوسهم كما تصدع خَمْرة الدنيا رأس شاربها.

﴿وَلَا﴾ هم عنها ﴿يُنزِفُونَ﴾؛ أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمر الدنيا.

والحاصل: أن كلّ ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]، وذكر هنا خمر الجنة، ونفىٰ عنه كل آفة توجد في الدنيا.

[٢٠] ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنىٰ [اللذيذ]، حصل لهم علىٰ أكمل وجه وأحسنه.

[٢١] ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: من كل صنفٍ من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاؤوا مشويا، أو طبيخا، أو غير ذلك.

[٢٢-٢٣] ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾؛ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعِين: حسان الأعين ضخامها وحسن عين الأنثىٰ، من أعظم الأدلة علىٰ حسنها وجمالها.

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾؛ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرَّطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه؛ بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النُّعوت.

فكل ما تأمَّلته منها لم تجد فيه إلا ما يسرّ القلب ويروق الناظر.

[٢٤] وذلك النَّعيم المعد لهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فكما حسُنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفَّر لهم الفوز والنعيم.

[٢٥-٢٦] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾؛ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلامًا يُلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاما يؤثّم صاحبه.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾؛ أي: إلَّا كلاما طيبا، وذلك لأنها دار الطيِّبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل علىٰ حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسرُّه للقلوب وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة]

[٢٧-٣٤] ثم ذكر ما أعدّ لأصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي:

شأنهم عظيم، وحالهم جسيم.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ والطَّلح معروف، وهو شجر كبار يكون بالبادية، تُنَضَّد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾؛ أي: كثيرٌ من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدُّنيا تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممتنعة؛ أي: متعسرة علىٰ مبتغيها؛ بل هي علىٰ الدوام موجودة، وجناها قريبٌ يتناوله العبد علىٰ أي حالٍ يكون.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ أي: مرفوعةٌ فوق الأسرَّة ارتفاعا عظيما، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله.

[٣٥-٣٨] ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾؛ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأةً كاملة لا تقبل الفناء. ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ صغارهن وكبارهن.

وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف -وهو البكارة- ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازمٌ لهن في كل حال، والعَروب: هي المرأة المتحبِّبة إلىٰ بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها، فهي: التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصًا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلىٰ أدبها وسَمْتها ودلِّها ملأت قلب بعلها فرحا وسرورا، وإن انتقلت من محل إلىٰ آخر امتلأ ذلك الموضع منها ريحًا طيِّبًا ونورا، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب اللاتي علىٰ سنٍّ واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنىٰ ونهاية سن الشباب، فنساؤهم عُرُبٌ أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفراح النفوس، وقرَّة العيون، وجلاء الأبصار.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: معدات لهم مهيئات.

[٣٩-٤٠] ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾؛ أي: هذا القسم؛ وهم: أصحاب اليمين عدد كثير

من الأولين، وعدد كثير من الآخرين.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة]

[٤١-٤٤] المراد بأصحاب الشِّمال هم: أصحاب النار، والأعمال المشؤومة. فذكر الله لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿فِي سَمُومٖ﴾؛ أي: ريح حارة من حر نار جهنم، تأخذ بأنفاسهم، وتُقلقهم أشد القلق، ﴿وَحَمِيمٖ﴾؛ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم. ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾؛ أي: لهب نار، يختلط بدخان. ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أنَّ هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأنَّ نفي الضد إثبات لضده.

[٤٥-٤٨] ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلىٰ هذا الجزاء؛ فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾؛ أي: قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعَّموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترفُ الذي ذمهم الله عليه.

﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ أي: وكانوا يفعلون الذُّنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرُّون علىٰ ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزارٍ كثيرة غير مغفورة.

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعادا لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ أي: كيف نُبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تُرابا وعظاما؟ هذا من المحال.

قال تعالىٰ في جوابهم:

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة]

[٤٩-٥٠] أي: قل إنَّ متقدِّم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعَثُهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالىٰ جزاؤهم علىٰ أعمالهم التي عملوها في دار التَّكليف.

[٥١-٥٣] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن طريق الهدىٰ، التابعون لطريق الردىٰ، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحقِّ والوعد والوعيد.

﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسُّها، وأنتنها ريحا، وأبشعها منظرا.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ والذي أوجب لهم أكْلَها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم، هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع.

[٥٤-٥٦] وأمَّا شرابهم، فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون علىٰ هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ وهي: الإبل العِطاش، التي قد اشتدَّ عطشها، أو أن الهيم داءٌ يصيب الإبل، لا تروىٰ معه من شراب الماء.

﴿هَٰذَا﴾ الطعام والشراب ﴿نُزُلُهُمْ﴾؛ أي: ضيافتهم ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ وهي: الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها علىٰ ضيافة الله لأوليائه.

قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾**﴾ [الكهف].

[٥٧] ثم ذكر الدليل العقلي علىٰ البعث؛ فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾؛ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورًا، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر علىٰ ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ؟ بلىٰ إنه علىٰ كلِّ شيء قدير، ولهذا وبَّخهم علىٰ عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة]

[٥٨-٦٢] أي: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ ابتداء خلقتكم من المني الذي ﴿تُمْنُونَ﴾، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالىٰ الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها في الذَّكر والأنثىٰ، وهدىٰ كلا منهما لما هنالك، وحبَّب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب التناسل.

ولهذا أحالهم الله تعالىٰ بالاستدلال بالنشأة الأولىٰ علىٰ النشأة الأخرىٰ، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ

﴿ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ القادر علىٰ ابتداء خلقكم قادر علىٰ إعادتكم.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧﴾ [الواقعة]

[٦٣-٦٧] وهذا امتنان منه علىٰ عباده، يدعوهم به إلىٰ توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسَّره لهم من الحرث للزروع والثمار، فيخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يُحصوها، فضلا عن شكرها، وأداء حقها، فقرّرهم بمنته، فقال: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؛ أي: أنتم أخرجتموه نباتا من الأرض؟ أم أنتم الذين نمّيتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سُنبله وثمره حتىٰ صار حبا حصيدا وثمرا نضيجا؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقُّوها وتلقوا فيها البذر، ثم لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم علىٰ أكثر من ذلك، ومع ذلك فنبههم علىٰ أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه بلغة لكم ومتاعا إلىٰ حين.

فقال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: الزَّرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿حُطَٰمٗا﴾؛ أي: فتاتا متحطِّما، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فَظَلۡتُمۡ﴾؛ أي: فصرتم بسبب جعله حطاما، بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: تندمون وتحسرون علىٰ ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكُّهكم، فتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾؛ أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا.

ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأيِّ سبب دهيتم، فتقولون: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ فاحمدوا الله تعالىٰ حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكمَّله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تُحرمون نفعه وخيره.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾ [الواقعة]

[٦٨-٧٠] لمَّا ذكر تعالىٰ نعمته علىٰ عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنّهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم إليه سبيل، وأنه الذي أنزله ﴿مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾، وهو السحاب والمطر الذي ينزله الله تعالىٰ فيكون منه الأنهار الجارية علىٰ وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغُدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذبا فُراتا تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحا أجاجًا لا ينتفع به ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة]

[٧١-٧٣] وهذه نعمة تدخل في الضَّروريات التي لا غنىٰ للخلق عنها، فإنَّ الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرَّرهم تعالىٰ بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأنَّ الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالىٰ الذي أنشأها من الشَّجر الأخضر، فإذا هي نار تُوقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفؤوها وأخمدوها.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾ للعباد بنعمة ربِّهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوْطًا يسوق به عباده إلىٰ دار النعيم، ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: المُنتفعين أو المسافرين، وخصّ الله المسافرين؛ لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلىٰ ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعًا للمسافرين في هذه الدار، وتذكرةً لهم بدار القرار.

[٧٤] فلما بيّن من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته= أمر بتسبيحه وتعظيمه؛ فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: نزِّه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك؛ لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسىٰ، ويطاع فلا يُعصىٰ.

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة]

[٧٥-٧٦] أقسم تعالىٰ بالنُّجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغاربها، وما يُحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدّالّة علىٰ عظمته وكبريائه وتوحيده.

ثم عظَّم هذا المقسَم به، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما كان القسم عظيما؛ لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبرًا لا يمكن حصرها.

[٧٧] وأما المقسَم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حقٌّ لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

[٧٨] ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾؛ أي: مستورٍ عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملإ الأعلىٰ.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم علىٰ تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

[٧٩] ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي: لا يمسُّ القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهَّرهم الله تعالىٰ من الآفات، والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسُّه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلىٰ مسه، دلت الآية تنبيهًا علىٰ أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنىٰ النهي أي: لا يمسُّ القرآن إلا طاهر.

[٨٠] ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: إن هذا القرآنَ الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربِّي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، وأجلّ تربية ربىٰ بها عباده: إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل علىٰ مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدِّرون لها شكورا، وممّا يجب عليهم أن يقوموا به ويُعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به.

[٨١] ولهذا قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾؛ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: تختفون وتدلِّسون خوفا من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم؛ فهو: الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي علىٰ غيره، وهو الذي لا يُداهن به ويختفىٰ؛ بل يصدع به ويعلن.

[٨٢] وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تجعلون مقابلة منّة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مُسديها ومُوليها، فهلا شكرتم الله تعالىٰ علىٰ إحسانه، إذ أنزله إليكم ليزيدكم من فضله، فإنَّ التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

[٨٣-٨٥] ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فهلّا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون.

[٨٦-٨٧] ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾؛ أي: فهلّا إذ كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلىٰ بدنها ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردِّها إلىٰ موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاء به محمّد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة]

[٨٨-٨٩] ذكر الله تعالىٰ أحوالَ الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذِّبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: إن كان الميت من المقربين إلىٰ الله المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات.

﴿فَـ﴾ لهم ﴿رَوْحٌ﴾؛ أي: راحة وطمأنينة، وسُرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ وهو: اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرها، وقيل: الرَّيحان هو الطِّيب المعروف، فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه العام.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فيبشِّر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحا وسرورا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

وقد فسّر قوله تبارك تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس:٦٤] أنَّ هذه البشارة

المذكورة، هي: البشرىٰ في الحياة الدنيا.

[٩٠-٩١] وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم: الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم، ﴿فَـ﴾ـيقال لأحدهم: ﴿سَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب؛ لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلموا من الموبقات.

[٩٢-٩٤] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدىٰ. ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾؛ أي: ضيافتهم يوم قدومهم علىٰ ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلىٰ أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدَّةِ العطش والظمأ ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝﴾ [الكهف].

[٩٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكره الله تعالىٰ، من جزاء العباد بأعمالهم، خيْرِها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية؛ بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع علىٰ ذلك، حتىٰ صار عند أولي الألباب كأنَّهم ذائقون له مشاهدون لحقيقته؛ فحمدوا الله تعالىٰ علىٰ ما خصهم من هذه النعمة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

[٩٦] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربِّنا العظيم، وتعالىٰ وتنزّه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

والحمد لله ربِّ العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.

تم تفسير سورة الواقعة

٥٧- [تَفْسِيرُ] سُورَةِ الْحَدِيدِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ [الحديد]

[١] يخبر تعالىٰ عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في السَّمٰوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، والجوامد تسبِّح بحمد ربها، وتتنزه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزّته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

[٢] ثم أخبر عن عموم ملكه؛ فقال: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ أي: هو الخالق لذلك الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

[٣] ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ الذي ليس دونه شيء، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمُه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدِّمة والمتأخرة.

[٤] ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من حب

وحيوان ومطر، وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبْتٍ وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة:٧].

وهذه المعيّة، معية العلم والاطلاع، ولهذا توعَّد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: هو تعالىٰ بصيرٌ بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من برٍّ وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم.

[٥] ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ ملكًا وخلقا وعبيدا، يتصرَّف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية، الجارية علىٰ الحكمة الربّانية، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمّال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

[٦] ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۚ﴾؛ أي: يُدخل الليل علىٰ النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار علىٰ الليل، فيزول ما علىٰ الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلىٰ مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال الله يكور الليل علىٰ النهار، والنهار علىٰ الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتّىٰ تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح بذلك ما يحصل بذلك، فتبارك الله ربّ العالمين، وتعالىٰ الكريم الجواد الذي أنعم علىٰ عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفِّق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾ [الحديد]

[٧] يأمر تعالىٰ عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنَّفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون، ثم لمَّا أمرهم بذلك، رغَّبهم وحثهم عليه بذكر ما رتَّب عليه من الثواب، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله، لهم أجر كبير، أعظمه وأجله رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين.

[٨] ثم ذكر السبب الداعي لهم إلىٰ الإيمان، وعدم المانع منه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمدا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داعٍ دعا إلىٰ الله يدعوكم، فهذا ممّا يوجب المبادرةَ إلىٰ إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحقِّ الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

[٩] ومع ذلك، من لُطفه وعنايته بكم، أنه لم يكتف بمجرَّد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم؛ بل أيده بالمعجزات، ودلكم علىٰ صدق ما جاء به بالآيات البينات، فلهذا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: ظاهراتٍ تدلُّ أهل العقول علىٰ صحة جميع كل ما جاء به وأنه الحقُّ اليقين، ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله علىٰ يدِه من الكتاب والحكمة.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر، إلىٰ نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكُم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

[١٠] ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من النَّفقة في سبيل الله، وهي: طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿وَ﴾ الحال أنه ليس لكم شيء؛ بل ﴿لِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلىٰ مالكه تبارك وتعالىٰ، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالىٰ تفاضل الأعمال بحسَب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ المرادُ بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرىٰ من الصُّلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل فيها نشر الإسلام،

واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلىٰ الدِّين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا، واعتزّ الإسلام عزا عظيما، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون علىٰ الدعوة إلىٰ الدين في غير البقعة التي أسلم أهلُها؛ كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يُؤذىٰ ويَخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرا وثوابا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضىٰ الحكمة، ولهذا كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول، احترز تعالىٰ من هذا بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾؛ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل علىٰ فضل الصحابة كلِّهم، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلًّا منكم علىٰ ما يعلمه من عمله.

[١١] ثم حث علىٰ النفقة في سبيله؛ لأن الجهاد متوقف علىٰ النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالىٰ حيث سماه قرضا، والمال ماله، والعبيد عبيده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافا كثيرة؛ وهو: الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلىٰ أقل شيء من الجزاء الحسن، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمۖ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًاۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد]

[١٢] يقول تعالىٰ -مبيِّنا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة-: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمۖ﴾؛ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط علىٰ متن جهنم، فحينئذٍ ترىٰ المؤمنين والمؤمنات، يسعىٰ نورهم بين

أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بنورهم وأيمانهم، في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب.

[١٣] فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون بنورهم وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ﴾؛ أي: إن كان ذلك ممكنا، والحال أن ذلك غير ممكن؛ بل هو من المحالات، ﴿فَضُرِبَ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾؛ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين.

[١٤] فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون تضرعا وترحما: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ﴾ في الدنيا نقول: (لا إله إلا الله) ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة؛ بل ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكا، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحالة الذميمة.

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره.

[١٥] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ ولو افتديتم بملء الأرض ذهبا ومثله معه، لما تقبل منكم، ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ﴾؛ أي: مستقركم، ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة].

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد]

[١٦] لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلىٰ الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين علىٰ عدم ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ألم يـأت الوقت الذي به تلين قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه الحث علىٰ الاجتهاد علىٰ خشوع القلب لله تعالىٰ، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم علىٰ ذلك، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه؛ ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلىٰ أن تذكر بما أنزل الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين.

[١٧] ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن الآيات تدل العقول علىٰ المطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر علىٰ أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر علىٰ أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق علىٰ رسوله، وهذه الآية تدل علىٰ أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد]

[١٨] ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بالتشديد؛ أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون ذُخرا لهم عند ربهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ

﴿كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

[١٩] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ والإيمان عند أهل السنة: ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾؛ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

وقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «**إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله**» وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم من الله تعالىٰ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جل عملهم الإحسان إلىٰ الخلق، وبذل النفع لهم بغاية ما يمكنهم، خصوصا بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قِسْمٌ ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد]

[٢٠] يخبر تعالىٰ عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا

أوقات أعمارهم بلهو القلوب، وغفلتهم عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلىٰ الله، من النفع القاصر والمتعدي.

وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾؛ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه، وغير ذلك، ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾؛ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها، بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرا ولم يجعلها مستقرا، فنافس فيما يقربه إلىٰ الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلىٰ دار كرامته، وإذا رأىٰ من يكاثره وينافسه في الأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلا بغيث نزل علىٰ الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا نظرهم وهمهم إلىٰ الدنيا جاءها من أمر الله ما أتلفها فهاجت ويبست، وعادت إلىٰ حالها الأولىٰ؛ كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رئي لها مرأىٰ أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر فأذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوىٰ الكفن، فتبًّا لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد علىٰ الأبد، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾؛ أي: حالُ الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إمَّا العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدُّنيا هي غايته ومنتهىٰ مطلبه، فتجرأ علىٰ معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله عليه دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعىٰ للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلىٰ الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾؛ أي: إلا متاع يتمتّع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.

[٢١] ثم أمر بالمسابقة إلىٰ مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلىٰ رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص علىٰ ما يُرضي الله علىٰ الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلىٰ الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: هذا الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلىٰ الجنة، والطرق الموصلة إلىٰ النار، وأن ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل من أعظم منته علىٰ عباده وفضله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصىٰ ثناء عليه؛ بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من خلقه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد]

[٢٢] يقول تعالىٰ مخبرا عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول؛ بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه علىٰ الله يسير.

[٢٣] وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرَّر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا علىٰ ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلىٰ دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنِّه، فيشتغلوا بشكر من أولىٰ النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ أي: متكبِّر فظٍّ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلىٰ نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزُّمَر:٤٩].

[٢٤] ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾؛ أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل

منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتىٰ أمروا الناس بذلك، وحثوهم علىٰ هذا الخُلق الذميم، بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السَّمٰوات والأرض، وهو الذي أغنىٰ عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحقُّ أن يحمد عليه ويثنىٰ ويعظم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد]

[٢٥] يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة علىٰ صدق ما جاؤوا به وحقّيته.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدِّين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنَّواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ قيامًا بدين الله، وتحصيلا لمصالحهم التي لا يمكن حصْرُها وعدها، وهذا دليل علىٰ أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت صور العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب، كالسِّلاح والدروع وغير ذلك.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتىٰ إنه قلّ أنْ يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلىٰ الحديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾؛ أي: ليقيم تعالىٰ سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب

والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حالة الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضروريا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوَّته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر علىٰ الانتصار من أعدائه، ولكنّه يبتلي أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالىٰ بهذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويُعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدلّ به علىٰ حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها علىٰ ألسنة رسله.

[٢٦] ولما ذكر نبوّة الأنبياء عموما، ذكر من خواصِّهم النبيين الكريمين نوحا وإبراهيم اللّذيْن جعل الله النبوة والكتاب في ذريَّتهما، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الأنبياء المتقدِّمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت علىٰ ذرِّيّة هذين النبيين الكريمين، ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: ممّن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُّهْتَدٍ﴾ بدعوتهم، منقادٌ لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة رسله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف].

[٢٧] ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾؛ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خصَّ الله عيسىٰ عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارىٰ، الذين يزعمون اتِّباع عيسىٰ عليه السلام، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢﴾[المائدة] الآيات.

ولهذا كان النَّصارىٰ ألين من غيرهم قلوبا، حين كانوا علىٰ شريعة عيسىٰ عليه السلام.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها علىٰ أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها؛ بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالىٰ، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه علىٰ أنفسهم. فهذه الحال هي

الغالب من أحوالهم.

ومنهم من هو مستقيمٌ علىٰ أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾؛ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسىٰ، كلٌّ أعطاه الله علىٰ حسب إيمانه ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد]

[٢٨] وهذا الخطاب، يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضىٰ إيمانهم، بأن يتَّقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي: نصيبين من الأجر نصيب علىٰ إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب علىٰ إيمانهم بمحمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون الأمر عامًّا يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوىٰ الذي يدخل فيه جميع الدِين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله تعالىٰ أجرٌ علىٰ الإيمان، وأجر علىٰ التقوىٰ، أو أجر علىٰ امتثال الأوامر، وأجر علىٰ اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرىٰ.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يعطيكم علما وهدىٰ ونورا تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فلا يستغرب هذا الثواب علىٰ فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السَّمٰوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

[٢٩] وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بيَّنّا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانا عاما، واتقىٰ الله، وآمن برسوله، لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم بأنهم لا ﴿يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يحجرون علىٰ الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:١١١]، ويتمنّون علىٰ الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالىٰ أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتّقين لله، لهم كفلين من رحمته، ونور،

ومغفرة، رغما علىٰ أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالىٰ أن يؤتيه من فضله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي لا يقادر قدره.

تم تفسير سورة الحديد،

ولله الحمد والمنة، والحمد لله.

٥٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة]

[١] نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلىٰ الله، وجادلته إلىٰ رسول الله ﷺ لمّا حرَّمها علىٰ نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلا شيخا كبيرا، فشكت حالها وحاله إلىٰ الله وإلىٰ رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾؛ أي: تخاطبكما فيما بينكما، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، علىٰ تفنن الحاجات، ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر دبيب النملة السوداء، علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله تعالىٰ سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها علىٰ وجه العموم، فقال:

[٢] ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: «أنت علي كظهر أمي» أو غيرها من محارمه، أو «أنت علي حرام» وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهارا» فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن

نِّسَآبِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾؛ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلمون أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾؛ أي: قولا شنيعا وكذبا. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح.

[٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآبِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ اختلف العلماء في معنىٰ العود، فقيل: معناه العزم علىٰ جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل علىٰ هذا، أن الله تعالىٰ ذكر في الكفارة أنها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل علىٰ ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلىٰ كل من القولين ﴿فَـ﴾ إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ مُؤْمِنَةٍ كما قيدت في آية القتل ذكرٍ أو أنثىٰ، بشرط أن تكون سالمة من العيوب الضارّة بالعمل.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾؛ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتىٰ يكفر برقبة.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم، ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنىٰ الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظاهر، إذا ذكر أن عليه عتق رقبة كف نفسه عنه، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيجازِي كل عامل بعمله.

[٤] ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ رقبةً يعتقها، بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿فَـ﴾ عليه ﴿صِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ الصِّيام ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ إما أن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإمَّا أن يُطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قولُ طائفةٍ أخرىٰ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي بيّنّاه لكم ووضحناه ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام، والعمل به، فإن التزام أحكام الله، والعمل بها من الإيمان؛ بل هي المقصودة ويزداد بها الإيمان ويكمُل وينمو.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها، فيجبُ ألا تُتعدىٰ ولا يقصَّر عنها ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات، عدة أحكام

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوىٰ هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوىٰ؛ بل رفع البلوىٰ بحُكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أنَّ الظهار مختص بتحريم الزوجة؛ لأن الله قال: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ فلو حرّم أمته، لم يكن ذلك ظهارا؛ بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفّارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوّجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرَّمٌ؛ لأن الله سماه ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾.

ومنها: تنبيه الله علىٰ وجه الحكم وحكمته؛ لأن الله قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها باسم محارمه، كقوله: «يا أمي»، «يا أختي» ونحوه ذلك؛ لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، علىٰ اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة: الصغير والكبير، والذكر والأنثىٰ، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقًا أو صياما قبل المسيس، كما قيده الله. بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعىٰ لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلىٰ الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر بإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينا، فلو جمع طعام ستين مسكينا، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥﴾ [المجادلة]

[٥] محادّة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصا في الأمور الفظيعة، كمحادة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاءً وفاقا.

وليس لهم حجة علىٰ الله، فإن الله قد قامت حجّته البالغة علىٰ الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبيِّن الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ أي: يهينهم ويذلُّهم، فكما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة]

[٦] يقول الله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الخلق جميعا فيقومون من أجداثهم سريعا فيجازيهم بأعمالهم وَ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ من خير وشر؛ لأنه علم ذلك، وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا والعاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصىٰ ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ علىٰ الظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا.

[٧] ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السَّمٰوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ والمراد بهذه المعيَّة معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسرُّوه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالىٰ:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة]

[٨-٩] النجوىٰ هي: التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر؛ وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله وحق عباده والتقوىٰ، وهي هنا: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا

تجده مناجيًا ومتحدثا إلا بما يقربه إلىٰ الله، ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يسيئون الأدب في تحيتهم لك، ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: يسرون فيها ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنىٰ ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولونه غير محذور، قال تعالىٰ في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل عذاب وشقاء عليهم، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرا وهم كذَبَة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا علىٰ النبي ﷺ، قالوا: «السام عليك يا محمد» يعنون: الموت.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة]

[١٠] يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾؛ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيفٌ ومكره غير مفيد.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإن الله تعالىٰ وعد المؤمنين بالكفاية والنصر علىٰ الأعداء، وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ**﴾ [فاطر:٤٣]، فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا، فإن ضرر ذلك عائد إلىٰ أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل علىٰ الله كفاه، وتولىٰ أمر دينه ودنياه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة]

[١١] هذا أدب من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلا لهذا

المقصود.

وليس ذلك بضار للفاسح شيئا، فيحصل مقصود أخيه من غير ضررٍ يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسَّع لأخيه، وسع الله عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾؛ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض، ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالىٰ يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة]

[١٢] يأمر تعالىٰ المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديبا لهم وتعليما، وتعظيما للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم ﴿خَيۡرٞ﴾ للمؤمنين ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾؛ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزانًا لمن كان حريصا علىٰ العلم والخير ، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق علىٰ الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر؛ بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة، بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

[١٣] ثم لما رأىٰ تبارك وتعالىٰ شفقة المؤمنين، ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصودًا لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالىٰ أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾؛ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هينا علىٰ

العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلىٰ مستحقيها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما علىٰ الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر؛ فيدخل في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله؛ بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الشرع.

والعبرة في ذلك علىٰ الإخلاص والإحسان، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيعلم تعالىٰ أعمالهم، وعلىٰ أي: وجهٍ صدرت، فيجازيهم علىٰ حسب علمه بما في صدورهم.

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]

[١٤-١٥] يخبر تعالىٰ عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارىٰ وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفىٰ نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء:١٤٣].

فليسوا مؤمنين ظاهرا وباطنا لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون علىٰ ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، والحال أنهم ليسوا مؤمنين.

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابا شديدا، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

[١٦] ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾؛ أي: ترسا ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو الصراط الذي من سلكه أفضىٰ به إلىٰ جنات النعيم.

ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلىٰ الجحيم، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي، الذي لا يُفتَّر عنهم ساعة ولا هم ينظرون.

[١٧] ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾؛ أي: لا تدفع عنهم شيئا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطا من الثواب، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

[١٨] ومن عاش علىٰ شيء مات عليه، فكما أنَّ المنافقين في الدنيا يموهون علىٰ المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعا، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئا فشيئا، حتىٰ غرّتهم وظنوا أنهم علىٰ شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج علىٰ عالم الغيب والشهادة.

[١٩] وهذا الذي جرىٰ عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولىٰ عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿**إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦**﴾ [فاطر].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا دينهم، ودنياهم، وأنفسهم، وأهليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ [المجادلة]

[٢٠-٢١] هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة. ووعد لمن آمن به، وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ

﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]

[٢٢] يقول تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملا علىٰ مقتضىٰ إيمانه ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبُغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان علىٰ الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ أي: رسمه وثبته وغرسه غرسا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله ﴿بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾ أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختار، ولهم أفضل النعيم وأكبره، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا وراءه نهاية.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك موادٌّ لأعداء الله، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوىٰ، لا تفيد شيئا ولا يصدق صاحبها.

والحمد لله

٥٩- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ
ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤
مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ
أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا
بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ
فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ
مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ

فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ [الحشر]

هذه السورة تسمىٰ: «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ، فلمّا بُعث النبي ﷺ، وهاجر إلىٰ المدينة، كفروا به في جملة مَن كفر مِن اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبيُّ ﷺ، وكلَّمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضَّمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتىٰ نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض، وسوَّل لهم الشيطان الشّقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، فقالوا: أيُّكم يأخذ هذه الرّحىٰ فيصعد فيلقيها علىٰ رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقضُ العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي علىٰ الفور إليه من ربِّه، بما هموا به، فنهض مسرعا، فتوجه إلىٰ المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همَّت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرا، فمن وجدتُ بعد ذلك بها ضربت عنقه» فأقاموا أيامًا يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي بن سلول : (ألَّا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان).

وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلىٰ رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللِّواء.

فأقاموا علىٰ حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرّق. فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم علىٰ أن يخرجوا منها بنفوسهم، وذراريهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ،

الأموال والسِّلاح.

وكانت بنو النضير، خالصةً لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمِّسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيلٍ ولا ركاب، وأجلاهم إلىٰ خيبر وفيهم حيي بن أخطب كبيرُهم، واستولىٰ علىٰ أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعًا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السِّير.

[١] فافتتح تعالىٰ هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السَّمٰوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته؛ لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه عسير الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئا عبثًا، ولا يشرِّع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضىٰ حكمته.

[٢] ومن ذلك، نصره لرسوله ﷺ علىٰ الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النَّضير حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبُّوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم علىٰ يد رسوله محمَّد ﷺ، فجلوا إلىٰ خيبر، ودلَّت الآية الكريمة أن لهم حشرا وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبيُّ ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، أخرج بقيَّتهم منها.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾؛ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْۖ﴾ من ديارهم، لحصانتها، ومنعتها، وعزهم فيها.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فأُعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالىٰ وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيه القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ﴾؛ أي: من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالىٰ ﴿قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾ وهو الخوف الشديد؛ الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصَّنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثِقَ بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلىٰ غير الله كان وبالًا عليه، فأتاهم أمر سماويٌّ نزل علىٰ قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفًا وخَورًا وجُبْنًا، لا حيلة لهم في دفعه، فصار ذلك عونا عليهم، ولهذا قال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ، علىٰ أنَّ لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيرا من سقُوفهم، التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم علىٰ إخراب ديارهم وهدم حصُونهم، فهم الذين جنوا علىٰ أنفسهم، وصاروا أكبر عونٍ عليها، ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإنَّ في هذا معتبرا يعرف به صنع الله تعالىٰ في المعاندين للحق، المتَّبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النَّكال بذنوبهم، والعبرة بعموم المعنىٰ لا بخصوص السَّبب، فإن هذه الآية تدلُّ علىٰ الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء علىٰ ما يشابهه، والتفكُّر فيما تضمّنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يكمل العقل، وتتنوّر البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي.

[٣] ثم أخبر تعالىٰ أنَّ هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم.

فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإنَّ لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله، فلا يخطُر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقيّة، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

[٤] و﴿ذَٰلِكَ﴾ لأنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ وعادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما.

وهذه عادته وسنّته فيمن شاقه ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

[٥] ولما لام بنو النَّضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصّلوا بذلك إلىٰ الطَّعن بالمسلمين، أخبر تعالىٰ أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالىٰ، وأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ حيث سلَّطكم علىٰ قطع نخلهم، وتحريقها، ليكون ذلك نكالا لهم، وخزيا في الدنيا، وذلًّا يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا علىٰ استنقاذ نخلهم، الذي هو مادة قوتهم. **واللينة**: تشمل سائر النخيل علىٰ أصح الاحتمالات وأولاها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله تعالىٰ في الدنيا.

[٦] ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم؛ فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير.

﴿فَـ﴾ إنّكم يا معشر المسلمين ﴿مَآ أَوْجَفْتُمْ﴾؛ [أي: ما أجلبتم وحشدتم، ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا

رِكَابٍ﴾]؛ أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم؛ بل قذف الله في قلوبهم الرُّعب، فأتتكم صفوا عفوا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من تمام قدرته أنه لا يمتنع عليه ممتنع، ولا يتعزز من دونه قويٌّ.

[٧] وتعريف **الفيء باصطلاح الفقهاء**: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي فرُّوا وتركوه خوفا من المسلمين، وسمِّي فيئا، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلىٰ المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه.

وحكمه العام، كما ذكره الله بقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ عموما، سواء كان في وقت رسوله أو بعده، علىٰ من تولىٰ من بعده من أمّته.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه الآية نظيرُ الآية التي في سورة الأنفال؛ وهي: قوله: ﴿**وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ [الأنفال:٤١].

فهذا الفيء يُقسم خمسة أقسام:

خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة، وخمس لذوي القربىٰ، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوَّىٰ فيه بين، ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خُمس الخمس، مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشَّعب، حين تعاقدت قريش علىٰ هجرهم وعداوتهم؛ فنصروا رسول الله ﷺ، بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبيُّ ﷺ، في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمس لفقراء اليتامىٰ، وهم: من لا أب له ولم يبلغ.

وخمس للمساكين.

وخمس لأبناء السبيل؛ وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾؛ أي: مدوالة واختصاصًا ﴿بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ فإنه لو لم يقدّره، لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيءٌ، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، كما أنَّ في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر اللهُ بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وَمَآ

ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ وهذا شاملٌ لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأنَّ ما جاء به الرسول يتعيَّن علىٰ العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحلُّ مخالفته، وأنّ نص الرسول علىٰ حكم الشيء كنصِّ الله تعالىٰ، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد علىٰ قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عِمارة القلوب والأرواح والدُّنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشَّقاء الأبدي والعذاب السرمدي؛ فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ علىٰ من ترك التقوىٰ، وآثر اتباع الهوىٰ.

[٨-٩] ثم ذكر تعالىٰ الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالىٰ أموال الفيء لمن قدَّرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقُّون لأنْ تجعل لهم، وأنهم:

ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال، رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله= فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضىٰ إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادّعىٰ الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات.

وبين أنصار؛ وهم: الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعا ومحبة واختيارا، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوأوا دار الهجرة والإيمان حتىٰ صارت موئلا ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدِّين يأوون إلىٰ الأنصار، حتىٰ انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزداد شيئا شيئا فشيئا، وينمو قليلا قليلا حتىٰ فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسّيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾؛ أي: لا يحسدون المهاجرين علىٰ ما آتاهم الله من فضله وخصَّهم به من الفضائل والمناقب الذين هم أهلها.

وهذا يدل علىٰ سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدلُّ ذلك علىٰ أن المهاجرين، أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذِّكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدلَّ علىٰ أن الله تعالىٰ آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾؛ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها علىٰ من سواهم: **الإيثار**، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خُلق زكي، ومحبة لله تعالىٰ مقدَّمة علىٰ محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين آثر ضَيْفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعًا، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمودٌ، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البُخل والشح، ومن رزق الإيثار فقد وقي شح نفسه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ووقاية شحُّ النفس، يشمل وقايتها الشح، في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقي العبد شحّ نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعًا منقادا، منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهىٰ الله عنه، وإن كان محبوبًا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه؛ بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشَّر ومادته.

[١٠] فهذان الصنفان الفاضلان الزَّكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتَّقين.

وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين، من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد المهاجرين والأنصار ﴿يَقُولُونَ﴾ علىٰ وجه النُّصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وهذا دعاءٌ شامل لجميع المؤمنين، من السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعَقْد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أنْ يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضُهم بعضًا.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفىٰ ثبت ضدُّه، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنُّصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف اللهُ من بعد الصحابة بالإيمان، لأنَّ قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ دليلٌ علىٰ المشاركة فيه،

وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله؛ وهم: أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمِّنٌ لمحبة بعضهم بعضا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرا وغائبا، حيا وميتا، ودلت الآية الكريمة علىٰ أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين؛ دالين علىٰ كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته؛ بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم: المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلىٰ مصالح الإسلام. وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

[١١] ثم تعجَّب تعالىٰ من حال المنافقين، الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم، وموالاتهم علىٰ المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحدا يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في هذا الوعد الذي غرُّوا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنِّفاق والجبن يصحبهم.

[١٢] ولهذا كذَّبهم الله بقوله، الذي وُجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال؛ فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ﴾ من ديارهم جلاءً ونفيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم علىٰ القتال، وعدم وفائهم بالوعد.

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ علىٰ الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: سيحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

[١٣] والسبب الذي حملهم علىٰ ذلك أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم ممَّا يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرًّا، علىٰ مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصوَّرون العواقب، وإنما الفقه كلُّ الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدَّمة علىٰ غيرها، وغيرها تبعًا لها.

[١٤] ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾؛ أي: لا يثبتون علىٰ قتالكم ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصِّنين في القرىٰ، أو من وراء الجُدُر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناعٌ، اعتمادا علىٰ حصونهم وجدرهم، لا شجاعةً بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين.

﴿وَ﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ أي: متباغضة متفرقة متشتّتة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتّصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا عقل عندهم، ولا لبّ، فإنهم لو كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل علىٰ المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون علىٰ مصالحهم ومنافعهم الدِّينية والدنيوية؛ مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة.

[١٥] ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم كفار قريش الذين ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨].

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم، ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتىٰ أتوا «بدرا» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب النار.

[١٦] ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾؛ أي: زيَّن له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغترَّ به وكفر، وحصل له الشَّقاء، لم ينفعه الشيطان، الذي تولَّاه ودعاه إلىٰ ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛

أي: ليس لي قدرة علىٰ دفع العذاب عنك، ولست بمغنٍ عنك مثقال ذرة من الخير.

[١٧] ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ﴾؛ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلِّيهم بغرور إلىٰ ما يضرهم، حتىٰ إذا وقعوا في الشِّباك، وحاق بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلىٰ عنهم.

واللوم كل اللوم علىٰ من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدِّم علىٰ طاعته، عاص علىٰ بصيرة لا عذر له.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر]

[١٨] يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا أن ﴿ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا﴾ يعملون، لا تخفىٰ عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأىٰ زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأىٰ نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربِّه في تتميمه وتكميله وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإنَّ ذلك يوجب له الحياء لا محالة.

[١٩] والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره

والقيام بحقه، وأقبلوا علىٰ حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا علىٰ طائل؛ بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبْنًا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه.

[٢٠] فهل يستوي من حافظ علىٰ تقوىٰ الله ونظر لما قدَّم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكره، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

[٢١] ولمّا بين تعالىٰ لعباده ما بيَّن، وأمر عباده ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلىٰ ما دعاهم إليه وحثَّهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ علىٰ الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية علىٰ الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء علىٰ النفوس، وأيسرها علىٰ الأبدان، خالية من التكلُّف لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالىٰ أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضِّح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيِّن له طرق الخير والشر، ويحثه علىٰ مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر]

[٢٢] هذه الآيات الكريمات قد اشتملت علىٰ كثيرٍ من أسماء الله الحسنىٰ وأوصافه العلىٰ، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ المألوه المعبود، ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكلُّ إله غيره فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه

فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخَلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسِعت كل شيء ووصلت إلىٰ كل حي.

[٢٣] ثم كرّر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك؛ فالعالَم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليكُ لله، فقراء مدبرون.

﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: المقدس السالم من كل عيبٍ وآفة ونقص، المعظم الممجد؛ لأن القدوس يدل علىٰ التنزيه عن كلِّ نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: المصدِّقُ لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع؛ بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيهٌ عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

[٢٤] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ للمبروءات، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقةٌ بالخلق والتدبير والتقدير، وأنَّ ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جدًّا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك، فكلها حسنىٰ؛ أي: صفات كمال، بل تدل علىٰ أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حُسْنِها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا: أن جميع من في السَّمٰوات والأرض مفتقرون إليه علىٰ الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئا إلا ويكون، ولا يكوِّن شيئا إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير هذه السورة

٦٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة]

ذكر كثير من المفسرين رحمهم الله، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبيُّ ﷺ غزاة الفتح، فكتب حاطب إلىٰ المشركين من أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتّخذ بذلك يدا عندهم لا شكًّا ونفاقا، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل

إلىٰ المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب. وعاتب حاطبًا، فاعتذر بعذرٍ قبِلَه النبي ﷺ.

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاءِ المودة إليهم، وأن ذلك منافٍ للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقضٌ للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئا، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلىٰ عدوه.

[١] فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: اعملوا بمقتضىٰ إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين.

فـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر وليًّا، عادم المروءة أيضا، فإنه كيف يوالي أعدىٰ أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! ومما يدعو المؤمن أيضا إلىٰ معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال علىٰ غير هدىٰ.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل علىٰ صحة قوله؛ بل مجرد العلم بالحق يدل علىٰ بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي يتعين علىٰ الخلق كلهم القيام بعبوديته؛ لأنه رباهم، وأنعم عليهم، بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالىٰ.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمتم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأي دين، وأي مروءة وعقل، يبقىٰ مع العبد إذا والىٰ الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟ ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾؛ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء رضاه فاعملوا بمقتضىٰ هذا، من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا من أعظم الجهاد في سبيله، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلىٰ الله ويبتغون به رضاه.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾؛ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي علىٰ المؤمنين، فلا يخفىٰ علىٰ الله تعالىٰ، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾؛ أي: موالاة الكافرين بعد ما حذّركم الله منها ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾؛ لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

[٢] ثم بيّن تعالىٰ شدة عداوتهم، تهييجا للمؤمنين علىٰ عداوتهم، ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾؛ أي: يجدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ ظاهرين ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

[٣] فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم.

[٤] ﴿قَدۡ﴾ كان ﴿لَكُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾؛ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم، ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله، ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا﴾؛ أي: ظهر وبان ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾؛ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم مستمرين علىٰ كفركم ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾؛ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، ولوازم ذلك ومقتضياته، وفي كلِّ شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة وهي: ﴿قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر المشرك، الكافر، المعاند، حين دعاه إلىٰ الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم له: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَ﴾: الحال أني لا ﴿أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ ولكني أدعو ربي عسىٰ ألَّا أكون

بدعاء ربي شقيا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة:١١٤].

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾؛ أي: رجعنا إلىٰ طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يزلفنا إليك.

[٥] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويُفتتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم علىٰ الحق وأنا علىٰ الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا علىٰ أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

[٦] ثم كرر الحث لهم علىٰ الاقتداء بهم، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل علىٰ من ﴿كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهِّل علىٰ العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرىٰ نفسه مفتقرا ومضطرا إلىٰ ذلك غاية الاضطرار.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنىٰ التام المطلق من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه بوجه، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود علىٰ ذلك كله.

[٧] ثم أخبر تعالىٰ أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا علىٰ شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلىٰ الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، والمودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون، من رجوعهم إلىٰ الإيمان، فـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلىٰ الإيمان، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ علىٰ كل شيء، ومن ذلك هداية

القلوب وتقليبها من حال إلىٰ حال، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر]، وفي هذه الآية إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

[٨] ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة علىٰ عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهىٰ الله عنه.

فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم؛ فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا تبعة كما قال تعالىٰ في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلما: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان:١٥].

[٩] وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟﴾؛ أي: عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ نهاكم الله ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ بالنصرة والمودة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلىٰ الأقارب وغيرهم من الآدميين، وغيرهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان توليا تاما، صار ذلك كفرا مخرجا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دونه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [الممتحنة]

[١٠] لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، علىٰ أن من جاء منهم إلىٰ المسلمين مسلما، أنه يرد إلىٰ المشركين، وكان هذا لفظا عاما، مطلقا يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم، إلىٰ الكفار وفاءً بالشرط وتتميما للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء فلمّا كان ردهن فيه مفاسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق؛ بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن، فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلىٰ الكفار، ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعىٰ أيضا الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضا عنهن، ولا جناح حينئذ علىٰ المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت علىٰ كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ وإذا نهي عن الإمساك بعصمتها فالنهي عن ابتداء تزويجها أولىٰ، ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾؛ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلىٰ الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلىٰ الكفار، وفي هذا دليل علىٰ أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم؛ حكم الله بينه لكم ووضحه؛ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فيعلم تعالىٰ، ما يصلح لكم من الأحكام، فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

[١١] وقوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلىٰ المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلىٰ الكفار وفاتت عليه، فعلىٰ المسلمون أن يعطوه من

الغنيمة بدل ما أنفق.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإيمانكم بالله، يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوىٰ علىٰ الدوام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [الممتحنة]

[١٢] هذه الشروط المذكورة في هذه الآية، تسمىٰ «مبايعة النساء» اللاتي كن يبايعن علىٰ إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب علىٰ الذكور والنساء في جميع الأوقات.

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمتثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن في جملة المؤمنين ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ بل يفردن الله وحده بالعبادة.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كما كان ذلك موجودا كثيرا في البغايا وذوات الأخدان.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ **والبهتان**: الافتراء علىٰ الغير؛ أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾؛ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن لك في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعوىٰ الجاهلية.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ﴾ عن تقصيرهن، وتطييبًا لخواطرهن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلىٰ المذنبين التائبين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ وسِعَت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾ [الممتحنة]

[١٣] أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتّبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ

﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ وإنَّما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار؛ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: قد حُرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيبٌ، فاحذروا أن تولَّوهم فتوافقوهم علىٰ شرِّهم وشركهم فتحرموا خير الآخرة كما حُرموا.

وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ حين أفضوا إلىٰ الدار الآخرة، وشاهدوا حقيقة الأمر وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.

ويحتمل أن المعنىٰ: قد يئسوا من الآخرة؛ أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام علىٰ مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلىٰ الله تعالىٰ.

تم تفسيرها، والله أعلم.

٦١- تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف]

[١] وهذا بيان لعظمته تعالىٰ وقهره، وذل جميع الأشياء له تبارك وتعالىٰ، وأن جميع من في السَّمٰوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره.

[٢-٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون متصفون به.

فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، والناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس عنه، قال تعالىٰ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود:٨٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصف]

[٤] هذا حث من الله لعباده علىٰ الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون، وأنهم ينبغي لهم أن يصفّوا في الجهاد صفا متراصا متساويا، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم علىٰ نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدوّ وتنشيط بعضهم بعضا، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم علىٰ بعض؛ بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل

الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصف]

[٥] أي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ موبِّخا لهم علىٰ صنيعهم، ومقرعا لهم علىٰ أذيته، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ﴾.

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والقيام بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلىٰ الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركُوه، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾؛ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ عقوبةً لهم علىٰ زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدىٰ، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، ليس لهم قصد في الهدىٰ.

وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده، ليس ظلما منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا علىٰ أنفسهم باب الهدىٰ بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلا منه بهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٩﴾ [الصف]

[٦] يقول تعالىٰ مخبرا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسىٰ ابن مريم، وقال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾؛ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلىٰ الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل علىٰ صدقي، كوني، ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: جئت بما جاء به موسىٰ من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعٍ للنبوة، لجئت بغير ما جاء به المرسلون،

و﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾: أيضا أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصدّقا لها ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسىٰ عليه الصلاة والسلام، كسائر الأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسىٰ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: الأدلة الواضحة، الدالة علىٰ أنه هو، وأنه رسول الله حقا.

﴿قَالُواْ﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته، وصارت أبين من شمس النهار، يجعل ساحرا بينا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أبلغ من هذا الافتراء، الذي نفىٰ عنه ما كان معلوما من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه؟

[٧] ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بهذا أو غيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ ويبيّن له ببراهينه وبيناته، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا يزالون علىٰ ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصا هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل.

[٨] ولهذا قال الله عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي: لا حقيقة لها؛ بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإظهار نوره علىٰ سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهته كل ما قدروا عليه مما يتوصلون به إلىٰ إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون، ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس بفيه ليطفئها، فلا علىٰ مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

[٩] ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلىٰ مصالح

الدنيا والآخرة.

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد فما بعث به النبي ﷺ من الهدي ودين الحق، أكبر دليل وبرهان علىٰ صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد العاقل تفكرا، ازداد به فرحا وتبصرا.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: ليعليه علىٰ سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا علىٰ أهل الأديان، وإذا ضيعوا واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا من استقرأ الأحوال والنظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف]

[١٠] هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلىٰ مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

وأتىٰ بأداة العرض الدالة علىٰ أن هذا أمر يرغب فيه كل متصبّر، ويسمو إليه كل لبيب.

[١١] فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجلها: الجهاد في سبيله؛ فلهذا قال: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ بأن تبذلوا نفوسكم

ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، وإن كان كريها للنفوس شاقا عليها، فإنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر علىٰ الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه، والخير الأخروي بالفوز بثواب الله والنجاة من عقابه.

[١٢] ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وهو شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها، وأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّىٰ، ولهم فيها من كل الثمرات، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحُسن بناء وزخرفة، حتىٰ إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يُتراءىٰ الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتىٰ إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتىٰ إنها من صفائها يرىٰ ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر علىٰ قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتىٰ يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقَر به أعينهم.

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه؛ بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه وفوق ما يثني عليه أحد من خلقه، وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالىٰ من له الحكمة التامة، الذي من جملتها، أنه لو أرىٰ العباد الجنة ونظروا إلىٰ ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنَاهم العيش في هذه الدار المنغّصة، المشوب نعيمها بألمها، وفرحها بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدا، ولا يبغون عنها حولا، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

[١٣] وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾؛ أي: ويحصل لكم خصلة

أخرىٰ تحبونها؛ وهي: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم علىٰ الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، إذا قام غيرهم بالجهاد فلم يؤيسهم الله تعالىٰ من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل علىٰ حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «**من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا= وجبت له الجنة**» فعجب بها أبو سعيد الخدري راوي الحديث؛ فقال: أعدها علي يا رسول الله، فأعادها عليه؛ ثم قال: «**وأخرىٰ يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله**» رواه مسلم.

[١٤] ثم قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص علىٰ تنفيذه علىٰ الغير، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه، ومن نصر دين الله، تعلُّم كتاب الله وسنة رسوله وتعليمه، والحث علىٰ ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: قال لهم منبها: من يعاونني ويقوم معي في نصر دين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ فمضىٰ عيسىٰ عليه السلام علىٰ أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسىٰ والحواريين، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾؛ أي: قوّيناهم ونصرناهم عليهم.

﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ عليهم قاهرين لهم، فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم علىٰ عدوكم.

تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

٦٢- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ①﴾ [الجمعة]

[١] ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: يسبح لله، وينقاد لأمره، ويتألهه، ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه، وتحت تدبيره.

﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص.

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها، ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة تدعو إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ② وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ④﴾ [الجمعة]

[٢] ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالىٰ عليهم، منة عظيمة، أعظم من منته علىٰ غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأصنام والأشجار والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولا منهم، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ بأن يفصّل لهم الأخلاق الفاضلة، ويحثُّهم عليها، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ أي: علم القرآن وعلم

السنة، المشتمل علىٰ علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقًا، وأحسنهم هديًا وسمتًا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وقادة المتقين، فلله تعالىٰ عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ، أكمل نعمة، وأجل منحة.

[٣] وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾؛ أي: وامتن علىٰ آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم، أي: فيمن باشر دعوة الرسول، يحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلىٰ كلٍّ، فكلا المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدًا أن يلحقهم فيها.

[٤] وهذا من عزّته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملا ولا سدىٰ؛ بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك، من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾[الجمعة]

[٥] لما ذكر تعالىٰ منّته علىٰ هذه الأمة، الذين بعث فيهم النبيّ الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتىٰ أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربّانيون والأحبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارىٰ، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بها، فلم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟

فهذا مثل علماء أهل الكتاب الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجلّه وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد مَن هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ صدق رسولنا وصحة ما جاء به.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يرشدهم إلىٰ مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا.

[٦] ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم علىٰ باطل، ويزعمون أنهم علىٰ حق، وأنهم أولياء لله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم علىٰ الحق، وأولياء الله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم علىٰ حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلا علىٰ صدقهم إن تمنوه، وكذبهم إن لم يتمنوه.

[٧] ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلا يمكن أن يخفىٰ عليه من ظلمهم شيء.

[٨] هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدّمت أيديهم، بل يفرون منه غاية الفِرار، فإن ذلك لا ينجيهم؛ بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتّمه الله علىٰ العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلىٰ عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾[الجمعة]

[٩] يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادىٰ لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهي

عنه عند المضي إلىٰ الصلاة، وقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ﴾؛ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، أو تفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقىٰ، وأن من آثر الدنيا علىٰ الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث يظنّ أنه يربح.

[١٠] وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة؛ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره لينجبر بهذا، فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلىٰ جنوبكم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

[١١] ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ أي: خرجوا من المسجد، حرصًا علىٰ ذلك اللهو، وتلك التجارة، وتركوا الخير، ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ تخطب الناس، وذلك في يوم جمعة، بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها، وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالا لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه علىٰ عبادة الله.

﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ التي وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منقضٍ، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر علىٰ طاعة الله مفوتًا للرزق، فإنّ الله خير الرازقين، فمن اتقىٰ الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة

منها: أن الجمعة فريضة علىٰ جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي إليها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضة يجب حضورهما، لأنه فسّر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النِّداء للجمعة، والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء، بعد نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويَشغل عنه، فدل ذلك علىٰ أن كل أمر وإن كان مباحًا في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا

يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومِنْ لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل علىٰ عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يذكّرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه علىٰ هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه

والحمد لله ربّ العالمين

٦٣- تَفْسِير سُورَة الْمُنَافِقِين

وَهِي مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون]

[١] لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر الإسلام فيها وعزّ، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقىٰ جاههم، وتُحقن دماؤهم، وتسلم أموالُهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم علىٰ بصيرة، فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ﴾ علىٰ وجه الكذب: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين علىٰ وجه الكذب والنِّفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله؛ فإنَّ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

[٢] ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾؛ أي: تُرسًا يتترّسون بها من نسبتهم إلىٰ النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفىٰ عليه حالهم، ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا علىٰ ذلك وأوهموا صِدقهم.

[٣] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي زيّن لهم النفاق ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمۡ﴾ لا يثبتون علىٰ الإيمان؛ بل ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبدًا، ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما

يعود بمصالحهم.

[٤] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة؛ ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجُبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، وريبها، يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ علىٰ الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يُشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، ﴿فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبيَّنت أدلته، واتضحت معالمه، إلىٰ الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

[٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسّن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ امتناعًا من طلب الدعاء من الرسول، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق بغضًا له ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغيًا وعنادًا، فهذه حالهم عندما يدعون إلىٰ طلب الدعاء من الرسول.

[٦] وهذا من لُطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه ﴿سَوَآءٌ﴾ استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فـ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر علىٰ الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالىٰ: **﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة:٨٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون]

[٧] وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ فإنهم

- بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدّعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس علىٰ خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوىٰ، التي لا تروج إلا علىٰ من لا علم له بالحقائق، ولهذا قال الله ردًا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسّر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها علىٰ من يشاء، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم.

[٨] ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وذلك في غزوة المُريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حينئذٍ نفاق المنافقين، وتبين ما في قلوبهم، وقال كبيرهم، عبد الله بن أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء -يعني المهاجرين- إلا كما قال القائل: (سمِّن كلبك يأكلك)، وقال: لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. بزعمه أنه هو وإخوانه المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن اتبعه هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغترارًا بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾ [المنافقون]

[٩] يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالإكثار من ذِكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإنَّ محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدِّمها علىٰ محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للسّعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾[التغابن].

[١٠] وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ يدخل في هذه: النفقاتُ الواجبة، من الزكاة والكفارات

ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ليدل ذلك علىٰ أنه تعالىٰ لم يكلف العباد من النفقة، ما يعنتهم ويشق عليهم؛ بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ويسره لهم ويسر أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ﴾ متحسِّرًا علىٰ ما فرط في وقت الإمكان، سائلا الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾؛ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلِّها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

[١١] وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ المحتوم لها ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم علىٰ ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين

ولله الحمد

٦٤- تَفْسِير سُورَة التَّغَابُن

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ [التغابن]

[١] هذه الآيات الكريمات مشتملات علىٰ جملة كثيرة واسعة من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته سبحانه وتعالىٰ، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السَّمٰوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج عن ملكه مخلوق، والحمد كله له، حمد علىٰ ما له من صفات الكمال، وحمدٌ علىٰ ما أوجده من الأشياء، وحمد علىٰ ما شرعه من الأحكام، وأسداه من النعم.

وقُدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يُعجزه شيء يريده.

[٢] وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قُدرةً وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

[٣] فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: أجرامهما، وجميع ما فيهما، فأحسن خلقهما، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة، والغاية المقصودة له تعالىٰ، ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين] فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم علىٰ إيمانكم وكُفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أَوْلاكم هل قمتم

بشكره، أم لم تقوموا به؟

[٤] ثم ذكر عموم علمه؛ فقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من الأسرار الطيِّبة، والخبايا الخبيثة، والنِّيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين علىٰ العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرَّذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾ [التغابن]

[٥] لما ذكر تعالىٰ من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يُعرف ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته، وتُجتنب مساخطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضين، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدَّث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم رسلهم بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدُّنيا، وأخزاهم فيها، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الدار الآخرة.

[٦] ولهذا ذكر السَّبب في هذه العقوبة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال والوبال، الذي أحللناه بهم ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات، الدالة علىٰ الحق والباطل، فاشمأزوا، واستكبروا علىٰ رسلهم، وَ﴿قَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾؛ أي: فليس لهم فضل علينا، ولأي: شيء خصَّهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرىٰ: **﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾** [إبراهيم:١١]؛ فهم حجروا فضل الله ومنّته علىٰ أنبيائه أن يكونوا رسلا للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأشجار والأحجار ونحوها ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالله ﴿وَتَوَلَّواْۖ﴾ عن طاعة الله، ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضرُّه ضلالهم شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾؛ أي: هو الغني، الذي له الغنىٰ التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن]

[٧] يخبر تعالىٰ عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدىٰ ولا

كتاب منير، فأمر أشرف خلقه، أن يقسم بربه علىٰ بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيرًا؛ بل متعذرًا بالنسبة إلىٰ الخلق، فإن قواهم كلهم، لو اجتمعت علىٰ إحياء ميت واحد، ما قدروا علىٰ ذلك.

وأما الله تعالىٰ، فإنه إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمَر].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾ [التغابن]

[٨] لما ذكر تعالىٰ إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه وسماه الله نورًا، لأن النور ضد الظلمة، فما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدىٰ بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشىٰ بها في حندس الليل البهيم، وما سوىٰ الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها؛ بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضىٰ ذاك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾ [التغابن]

[٩] يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا، فحينئذٍ يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق، ويرفع أقوام إلىٰ عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة علىٰ جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلىٰ أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾؛ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم علىٰ غير شيء، وأنهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالىٰ أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ إيمانًا تامًّا، شاملا لجميع ما أمر الله بالإيمان به،

﴿وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده، ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

[١٠] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي؛ بل جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن]

[١١] يقول تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد، بقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالىٰ، وجرىٰ به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، ولكن الشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلّم لأمره= هدىٰ الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري ممّن لم يهد الله قلبه؛ بل يرزقه الثّبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدّخر الله له يوم الجزاء من الثواب كما قال تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾** [الزُّمَر]، وعُلم من ذلك أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره؛ بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلىٰ نفسه، وإذا وكل العبد إلىٰ نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع الذي هو عقوبة عاجلة علىٰ العبد، قبل عقوبة الآخرة، علىٰ ما فرط في واجب الصبر، هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن؛ أي: الإيمان المأمور به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سببٍ لهداية الله له في أحواله

وأقواله وأفعاله وجميع أحواله، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالىٰ مخبرا: أنه يثبت المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] فأهل الإيمان أهدىٰ الناس قلوبًا، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[١٢] وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغًا بينا واضحا فتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شيء، وإنما يحاسبكم علىٰ القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

[١٣] ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمدوا عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا بالاعتماد علىٰ الله، ولا يتم الاعتماد علىٰ الله حتىٰ يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله قوة وضعفا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٞ ۝١٥﴾ [التغابن]

[١٤-١٥] هذا تحذير من الله للمؤمنين، عن الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فوظيفتك الحذر ممن هذه صفته، والنفس مجبولة علىٰ محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالىٰ عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد التي فيها محذور شرعي، ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل علىٰ المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة علىٰ الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر علىٰ العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم،

أمر تعالىٰ بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك، من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن عامل الله تعالىٰ فيما يحب، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم= نال محبة الله ومحبة عباده، واستوسق له أمره.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [التغابن]

[١٦] يأمر تعالىٰ بتقواه التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل علىٰ أن كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه، وأنه إذا قدر علىٰ بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ الله ورسوله في جميع أموركم، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيرًا من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله تعالىٰ ﴿شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب؛ بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قِبلها، لم يفلح؛ بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفسًا سمحة، مطمئنة، منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاته، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مرض لله تعالىٰ، وبذلك تُفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

[١٧] ثم رغّب تعالىٰ في النفقة فقال: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالىٰ ووضعها موضعها ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة.

﴿وَ﴾ مع المضاعفة أيضًا ﴿يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُمْۚ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:١١٤].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه؛ بل يمهله ولا يهمله، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ [فاطر:٤٥]، والله تعالىٰ شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالىٰ لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وأنواع التكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

[١٨] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: ما غاب من العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالَب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير السورة، ولله الحمد.

٦٥- تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلَاقِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق]

[١] يقول تعالىٰ مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: أردتم طلاقهن ﴿فَـ﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله؛ بل ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحةٌ بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تُحتسب تلك الحيضة، التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلّقها في طهر وطئ فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد، وأمر تعالىٰ بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملا، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلّق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقّها في النفقة ونحوها فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها علىٰ بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾؛ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، فـ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة؛ بل تلزم بيتها الذي طلقها زوجها وهي فيه.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾؛ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتستكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾؛ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها؛ كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسبّبت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها، وهذا في المعتدّة الرجعية.

وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكنى تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: التي حدّها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾؛ أي: بخسها حقّها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة.

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾؛ أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها.

[٢] وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيرًا بين الإمساك والفراق، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: على وجه المعاشرة الحسنة، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه، لا يجوز، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصُم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وَأَشْهِدُواْ﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: رجُلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سدًّا لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وَأَقِيمُواْ﴾؛ أيها الشهداء ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾؛ أي: ائتوا بها علىٰ وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالىٰ، ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته، ولا صاحبًا لمحبته، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فإنَّ الإيمان بالله واليوم الآخر، يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة، ما يتمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالىٰ بتقواه، ووعد من اتقاه في الطلاق وغيره بإن يجعل له فرَجًا ومخرجًا.

فإذا أراد العبد الطلاق ففعله علىٰ الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقةً واحدة، في غير حيض ولا طهر أصابها فيه؛ فإنه لا يضيق عليه الأمر؛ بل جعل الله له فرجًا وسعة يتمكن بها من الرجوع إلىٰ النكاح إذا ندم علىٰ الطلاق.

والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقىٰ الله تعالىٰ ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقّة، وكما أن من اتقىٰ الله جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله يقع في الآصار والأغلال التي لا يقدر علىٰ التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك في الطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه؛ بل أوقعه علىٰ الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها.

[٣] وقوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾؛ أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد علىٰ الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلىٰ العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلىٰ الوقت المناسب له؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾؛ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه قَد جَعَلَ ﴿ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾؛ أي: وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق]

[٤] لما ذكر تعالىٰ أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالىٰ العدة، فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يرج رجوعه، فإن عدَّتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾؛ أي: الصِّغار، اللائي لم يأتهن الحيض بعد، أو البالغات اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة:٢٢٨]، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾؛ أي: عدتهن ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾؛ أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ، بالأشهر ولا غيرها، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾؛ أي: من اتقىٰ الله يسر له الأمور، وسهّل عليه كل عسير.

[٥] ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الحكم الذي بيَّنه الله لكم ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ لتمشوا عليه، وتأتموا به وتعظموه.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾؛ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ٦ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق]

[٦] تقدم أن الله نهىٰ عن إخراج المطلقات عن البيوت وهنا أمر بإسكانهن وقدر إسكانهن بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾؛ أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة

فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهىٰ عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن، علىٰ وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلىٰ العرف، ﴿وَإِن كُنَّ﴾؛ أي: المطلقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهىٰ النفقة إلىٰ وضع الحمل؛ فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المسماة لهن، إن كان مسمىٰ، وإلا فأجر المثل، ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾؛ أي: وليأمر كل واحد من الزوجين وغيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيها من الضرر والشر ، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون علىٰ البر والتقوىٰ، ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة خصوصًا إذا ولد بينهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلىٰ الولد مع الفراق، الذي لا يحصل في الغالب إلا مقرونا بالبغض، فيتأثر من ذلك شيء كثير.

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمنازعة، وينصح علىٰ ذلك.

﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ بأن لم يتفق الزوجان علىٰ إرضاعها لولدها، ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ غيرها و﴿لَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا علىٰ مسمىٰ، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنىٰ، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، لا خروج منه، عين تعالىٰ علىٰ وليه النفقة، فلما ولد، وكان يتمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالىٰ الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته.

[٧] ثم قدر تعالىٰ النفقة، بحسب حال الزوج فقال: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾؛ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾؛ أي: ضيق عليه ﴿فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ من الرزق.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالىٰ سيزيل عنهم الشدة،

ويرفع عنهم المشقة، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق]

[٨-١٠] يخبر تعالىٰ عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسل وأن كثرتهم وقوتهم، لم تغن عنهم شيئًا، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجبُ أعمالهم السيئة.

ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذابا شديدًا، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.

[١١] ثم ذكَّر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله علىٰ رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلىٰ نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس، من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون.

[١٢] ثم أخبر تعالىٰ أنه خلق [الخلق من السَّمٰوات السبع] ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلىٰ رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأسمائه الحسنىٰ وأوصافه المقدسة =

عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسيرها والحمد لله

٦٦- تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ
ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ
أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا
بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن
تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ
رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ
سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾ [التحريم]

[١] هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم علىٰ نفسه سُرِّيته «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحي ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ من الطيبات، التي أنعم الله بها عليك وعلىٰ أمتك.

﴿تَبۡتَغِي﴾ بذلك التحريم ﴿مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم ورحمه.

[٢] وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين؛ أي: قد شرع لكم، وقدَّر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به تتكفّر بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾ [المائدة] إلىٰ أن قال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ

يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

فكل من حرم حلالا عليه من طعام أو شراب أو سُرّية، أو حلف يمينًا بالله علىٰ فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾؛ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمر دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[٣] وقوله: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أسر لها النبي ﷺ حديثًا، وأمر ألّا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه ﷺ، وحلمًا، فـ﴿قَالَتۡ﴾ له: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفىٰ عليه خافية، يعلم السر وأخفىٰ.

[٤] وقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ علىٰ نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما علىٰ ذلك، وأخبرهما أن قلوبكما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وألّا يشققن عليه، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؛ أي: تعاونا علىٰ ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أنصاره فهو المنصور، وغيره إن يناوئه فهو مخذول، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.

وفيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفىٰ.

[٥] ثم خوفهما أيضا بحالة تشق علىٰ النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾؛ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لا يضيق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًّا إليكن، فإنه سيجد ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما

ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام؛ وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان؛ وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب، والقنوت وهو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عمّا يكرهه الله، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا﴾؛ أي: بعضهُن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷺ فيما يحب، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلىٰ رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليلٌ علىٰ أن الله لا يختار لرسوله إلا أكمل الأحوال وأعلىٰ الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دلَّ علىٰ أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم]

[٦] أي: يا من من الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه؛ فـ ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله امتثالا ونهيه اجتنابًا، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم علىٰ أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيمن تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره؛ فقال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾؛ أي: غليظة أخلاقهم، شديد انتهارهم، يُفزعون بأصواتهم ويزعجون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوّتهم، وينفذون فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم بالعذاب وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضًا مدحٌ للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ [التحريم]

[٧] أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ فيقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء علىٰ الأعمال، وأنتم لم تقدِّموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم]

[٨] قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعىٰ المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطىٰ المنافقين، ويسألون الله أن يتمّ لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين، إلىٰ جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجه الله والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾ [التحريم]

[٩] يأمر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم، بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبىٰ أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولىٰ، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلىٰ جهادهم، وعذاب النار في الآخرة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم]

هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبيِّن لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئًا، وأنَّ اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا مع قيامه بالواجب عليه.

فكأن في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي ﷺ، عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ، لا ينفعهن شيئًا مع الإساءة، فقال:

[١٠] ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا﴾؛ أي: المرأتان ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدِّين، بأن كانتا علىٰ غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحدٍ من أنبيائه بغيًّا، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾؛ أي: نوح ولوط ﴿عَنْهُمَا﴾؛ أي: عن امرأتيهما ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ﴾ لهما ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

[١١] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرُّع لربها وسؤالها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء، إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة علىٰ النساء، كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام**».

[١٢] وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: وحفظته صانته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فوصلت نفخته إلىٰ مريم، فجاء منها عيسىٰ عليه السلام، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل؛ ولهذا قال ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾؛ أي: المداومين علىٰ طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، **والصديقية: هي كمال العلم والعمل**.

تمت ولله الحمد

٦٧- تَفْسِيرُ سُورَةِ المُلْكِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [المُلك]

[١] ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ أي: تعاظم وتعالىٰ، وكثُر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها علىٰ كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسَّمٰوات والأرض.

[٢] و﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾؛ أي: قدَّر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، وذلك أنّ الله خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشّهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدَّارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصّرين والمذنبين، خصوصًا إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السَّماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

[٣] ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾؛ أي: كلُّ واحدة فوق الأخرىٰ، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾؛ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفىٰ النقص من كل وجه، صارت حسنةً كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها

وارتفاعها، وما فيها من الشَّمس والقمر والكواكب النيِّرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلومًا، أمر تعالىٰ بتكرار النّظر إليها والتأمل في أرجائها، قال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾؛ أي: أعده إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾؛ أي: نقصٍ واختلال.

[٤] ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ والمراد بذلك: كثرة التَّكرار ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾؛ أي: عاجزًا عن أن يرىٰ خللًا أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرَّح بذكر حسنها فقال:

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾[المُلك]

[٥] أي: ولقد جملنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي: النجوم، علىٰ اختلافها في النور والضِّياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكانت سقفًا مظلمًا، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء وجمالا ونورًا وهداية يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السَّمٰوات السبع، فإن السَّمٰوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا﴾؛ أي: المصابيح ﴿رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم، حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمىٰ من النجوم أعدها الله في الدنيا للشياطين، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لأنهم تمردوا علىٰ الله، وأضلوا عباده.

[٦] ولهذا كان أتباعهم من الكفّار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلهذا قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ التي يهان أهلها غاية الهوان.

[٧] ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ علىٰ وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾؛ أي: صوتًا عاليًا فظيعًا.

[٨] ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾؛ أي: تكاد علىٰ اجتماعها أن يفارق بعضُها بعضًا، وتتقطع من شدة غيظها علىٰ الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟ ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال: ﴿كُلَّمَآ

﴿أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ؟ أي: حالكم هذه واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبّروا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

[٩] ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك حتىٰ أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرّد الضلال؛ بل جعلوا ضلالهم، ضلالا كبيرًا، فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا؟

[١٠] ﴿وَقَالُواْ﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدىٰ والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدىٰ، وهي: السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه علىٰ حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كلِّ ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصِّدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السَّمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علمًا ومعرفة وعملا.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدىٰ من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم -في الإيمان- بحسب ما منَّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختصُّ بفضله من يشاء، ويمنُّ علىٰ من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

[١١] قال تعالىٰ عن هؤلاء الداخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: بُعدًا لهم وخسارة وشقاء، فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتطلع علىٰ أفئدتهم!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ [المُلك]

[١٢] لما ذكر حالة الأشقياء الفُجّار، ذكر حالة الأبرار السعداء؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتىٰ في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون علىٰ معاصيه، ولا يقصّرون فيما أمر به ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم؛ وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم، ﴿وَ﴾ لهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وهو: ما أعده لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والقصور والمنازل العاليات، والحور الحسان، والخدم، والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن، الذي يحله علىٰ ساكني الجنان.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلك]

[١٣] هذا إخبارٌ من الله بسعة علمه، وشمول لطفه؛ فقال: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾؛ أي: كلها سواء لديه، لا يخفىٰ عليه منها خافية، فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترىٰ؟!

[١٤] ثم قال مستدلًّا بدليل عقلي علىٰ علمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتىٰ أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليِّه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلىٰ أعلىٰ المراتب، بأسبابٍ لا تكون من العبد علىٰ بال، حتىٰ إنه يذيقه المكاره ليتوصل بها إلىٰ المحاب الجليلة، والمطالب النبيلة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [المُلك]

[١٥] أي: هو الذي سخّر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلّقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرقٍ يتوصل بها إلىٰ الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾؛ أي: لطلبِ الرزق والمكاسب.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحانًا، وبلغة يُتبلغ بها إلىٰ الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتُحشرون إلىٰ الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ [المُلك]

[١٦] هذا تهديد ووعيد، لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله تعالىٰ، العالي علىٰ خلقه.

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب حتىٰ تهلكوا وتتلفوا.

[١٧-١٨] ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾؛ أي: عذابًا من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أنَّ أمنكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الأمد أو قصر، فإن من قبلكم كذبوا كما كذبتم؛ فأهلكهم الله تعالىٰ، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [المُلك]

[١٩] وهذا عتاب وحث علىٰ النظر إلىٰ حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، متردِّدة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ فإنّه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادها وخلقتها في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلّته علىٰ قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ فهو المدبِّر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾ [المُلك]

[٢٠] يقول تعالىٰ للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾؛ أي: ينصركم إذا أراد الرحمن بكم سوءًا، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم علىٰ أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالىٰ هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق، لو اجتمعوا علىٰ نصر عبد، لم ينفعوه بمثقال ذرة علىٰ أيّ عدو كان، فاستمرار الكافرين علىٰ كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفه.

[٢١] ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾؛ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون علىٰ رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لَّجُّواْ﴾؛ أي: استمروا ﴿فِي عُتُوّٖ﴾؛ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿وَنُفُورٍ﴾؛ أي: شرود عن الحق.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك]

[٢٢] أي: أي الرجلين أهدىٰ؟ من كان تائها في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًّا؟ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملًا به، يمشي علىٰ الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرَّد النظر إلىٰ حال الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، **والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.**

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [المُلك]

[٢٣] يقول تعالىٰ مبيِّنًا أنه المعبود وحده، وداعيًا عباده إلىٰ شكره، وإفراده بالعبادة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾؛ أي: أوجدكم من العدم، من غير معاونٍ له ولا مظاهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن وأكمل القوىٰ الجسمانية؛ ولكنكم مع هذا الإنعام ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله، قليلٌ منكم الشاكر، وقليلٌ منكم الشكر.

[٢٤] ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بثّكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدىٰ عليكم من النعم ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.

ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون.

[٢٥] ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيبًا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروهم بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

[٢٦] فـ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين هذا الخبر وبين الإخبار بوقته، فإن الصِّدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين علىٰ صحته ما لا يبقىٰ معه أدنىٰ شك لمن ألقىٰ السمع وهو شهيد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن

يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ [المُلك]

[٢٧] يعني أن محلَّ تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريبًا، ساءهم ذلك وأفظعهم، وأقلقهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا علىٰ تكذيبهم، وقيل لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، فاليوم رأيتموه عَيانًا، وانجلىٰ لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلّا مباشرة العذاب.

[٢٨] ولما كان المكذِّبون للرسول ﷺ، الذين يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: إنكم وإن حصلت لكم أمنيتكم وَ﴿أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذًا، تعبُكم وحرصكم علىٰ هلاكي غير مفيد، ولا مجدٍ لكم شيئًا.

[٢٩] ومن قولهم، إنهم علىٰ هدىً، والرسول علىٰ ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقِّفة علىٰ التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخلٌ في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٨] فإذا كانت هذه حال الرّسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعيَّن للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدِّها، فلا إيمان لهم ولا توكل، عُلم بذلك من هو علىٰ هدىً، ومن هو في ضلالٍ مبين.

[٣٠] ثم أخبر عن انفراده بالنِّعم، خصوصًا الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي؛ فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾؛ أي: غائرًا ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنىٰ النفي؛ أي: لا يقدر أحد علىٰ ذلك غير الله تعالىٰ.

تم تفسير سورة الملك، والحمد لله.

٦٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ نُ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم]

[١-٢] يقسم تعالىٰ بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام، التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام، من آياته العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، علىٰ براءة نبيِّه محمد ﷺ، مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون فنفىٰ عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجزل والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا.

[٣] ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾؛ أي: لأجرا عظيمًا، كما يفيده التنكير، غير مقطوع؛ بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، والهداية إلىٰ كل خير.

[٤] ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾؛ أي: عليًّا به، مستعليًا بخلقك الذي من الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالىٰ له: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٩] الآية، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾[التوبة:١٢٨] الآية، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات علىٰ اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات علىٰ كل خلق جميل، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلا لينا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة

من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يردُّه خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذورٌ، وإن عزم علىٰ أمر لم يستبدّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من مُحسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يُغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة؛ بل يحسن إلىٰ عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

[٥-٦] فلما أنزله الله في أعلىٰ المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ وقد تبين أنه أهدىٰ الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضلّ الناس، وشر الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفىٰ بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

[٧] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القلم]

[٨] يقول الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلا لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مقدم علىٰ ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ، أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه.

[٩] ولهذا قال: ﴿وَدُّواْ﴾؛ أي: المشركون ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ أي: توافقهم علىٰ بعض ما هم عليه، إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره نقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه.

[١٠] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾؛ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذابًا إلا وهو ﴿مَّهِينٍ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له رغبة في الخير؛ بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة.

[١١] ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾؛ أي: يمشي بين الناس **بالنميمة؛** وهي: **نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإيقاع العداوة والبغضاء.**

[١٢] ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حقِّ الله تعالى.

[١٣] ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق، ﴿زَنِيمٍ﴾؛ أي: دعي، ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير؛ بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنمة؛ أي: علامة في الشر، يعرف بها.

[١٤] وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيئ الأخلاق، خصوصًا الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبّر على الحق، وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

[١٥] وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها- فإنّها عامة في كل من اتّصف بهذا الوصف؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سببٍ أو في شخصٍ من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

[١٦] ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله بأن الله سيسمه ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ في العذاب، وليعذبه عذابًا ظاهرًا، يكون عليه سمة وعلامة في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ

﴿أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾[القلم]

[١٧-١٨] يقول تعالىٰ: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال، وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا؛ بل ربما يكون استدراجًا لهم من حيث لا يشعرون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها وزهت ثمارها ، وآن وقت صِرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناءٍ، أنهم سيصرمونها؛ أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأنَّ العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

[١٩-٢٠] ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: عذابٌ نزل عليها ليلا ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ فأبادها وأتلفها ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ أي: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار.

[٢١-٢٢] هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع المُلم، ولهذا تنادوا فيما بينهم، لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾.

[٢٣-٢٤] ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ قاصدين لها ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فيما بينهم بمنع حق الله، ويقولون: ﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ أي: بكَّروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفًا أن يسمعهم أحد، فيُخبر الفقراء.

[٢٥] ﴿وَغَدَوۡاْ﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ أي: علىٰ إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها.

[٢٦-٢٧] ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا﴾ علىٰ الوصف الذي ذكر الله كالصريم ﴿قَالُوٓاْ﴾ من الحيرة والانزعاج ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ أي: تائهون عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم؛ قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذٍ أنه عقوبة.

[٢٨] فـ ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ أي: أعدلهم، وأحسنهم طريقة ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: تنزّهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنّكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استثنيتم وقلتم: (**إِن شَآءَ ٱللَّهُ**)

وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئته، لما جرىٰ عليكم ما جرىٰ.

[٢٩] فـ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعد ما وقع العذاب علىٰ جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم علىٰ أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة.

[٣٠-٣٢] ولهذا ندموا ندامة عظيمة و﴿أَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ أي: متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا [أنهم] سيرغبون إلىٰ الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤاله.

[٣٣] قال تعالىٰ معظِّما ما وقع: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ أي: الدنيوي لمن أتىٰ بأسباب العذاب أن يسلبه الله الشيء الذي طغىٰ به وبغىٰ، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم]

[٣٤-٤١] يخبر تعالىٰ بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالىٰ لا تقتضي أن يجعل المتقين القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين مراضيه؛ كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلىٰ يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان

علىٰ إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوىٰ التي تبين بطلانها، فإنه لا يمكن أحدا أن يتصدر بها، ولا يكون زعيما فيها.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم]

[٤٢-٤٣] أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتىٰ الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأىٰ الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذٍ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجّار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون علىٰ السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء ما جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلىٰ السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذٍ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطّعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام علىٰ المعاصي، و يوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم]

[٤٤-٤٥] أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم؛ فإن عليّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم، فـ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغتروا ويستمروا علىٰ ما يضرهم، وهذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضررهم

وعقوبتهم كل مبلغ.

[٤٦] ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لك سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلِّمهم، وتدعوهم إلىٰ الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

[٤٧] ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم علىٰ حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

[٤٨-٥٠] فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار علىٰ دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر علىٰ المؤذي منه، ولا يتلقىٰ بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ وهو يونس بن متّىٰ، عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابهه في الحال، التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره علىٰ قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتىٰ ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت وهو مليم؛ وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادىٰ وهو مغتم مهتم فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾؛ ولكن الله تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولىٰ، ولهذا قال: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، وأحوالهم.

[٥١-٥٢] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر الله، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، ولم يبلغ أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتىٰ إنهم حرصوا علىٰ أن يُزلقوه ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ أي: يصيبوه بأعينهم، من حسدهم وحنقهم وغيظهم، هذا منتهىٰ ما قدروا عليه من الأذىٰ الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذىٰ القولي، فيقولون فيه أقوالا بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: «مجنون»، وتارة «شاعر»، وتارة «ساحر».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

والحمد لله.

٦٩- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاقَّةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة]

[١-٣] ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبّآت الصدور، فعظم تعالىٰ شأنها وفخّمه، بما كرره من قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ فإنّ لها شأنا عظيما وهوْلا جسيما، ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل.

[٤] ثم ذكر نموذجا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية؛ فقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المشهورة سكان الحِجْر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحا عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عادٌ الأولىٰ سكان حضرموت حين بعث الله إليهم رسوله هودا عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده فكذبوه وأنكروا ما أخبر به من البعث؛ فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل.

[٥] ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطّعت قلوبهم وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتىٰ لا يرىٰ إلا مساكنهم وجثثهم.

[٦] ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾؛ أي: قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف ﴿عَاتِيَةٖ﴾؛ أي: عتت علىٰ خزانها، علىٰ قول كثير من المفسرين، أو عتت علىٰ عاد وزادت علىٰ

الحد كما هو الصحيح.

[٧] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ أي: نحسا وشرا فظيعا عليهم فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾؛ أي: هلكىٰ موتىٰ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾؛ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قُطعت رءوسها الخاوية الساقط بعضها علىٰ بعض.

[٨] ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ وهذا استفهامٌ بمعنىٰ النفي المتقرر.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة]

[٩-١٠] أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسىٰ بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا ظلما وعلوا وجاء من قبله من المكذبين، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾؛ أي: قرىٰ قوم لوط الجميع جاؤوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ أي: بالفعلة الطاغية وهي الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة وما انضم إلىٰ ذلك من أنواع المعاصي والفسوق.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا اسم جنس؛ أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾؛ أي: زائدة علىٰ الحد والمقدار الذي يحصُل به هلاكهم.

[١١-١٢] ومن جملة هؤلاء: قوم نوح أغرقهم الله في اليم حين طغىٰ الماء علىٰ وجه الأرض وعلا علىٰ مواضعها الرفيعة. وامتن الله علىٰ الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾؛ وهي: السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة علىٰ توحيده، ولهذا قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها، ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ تذكركم أول سفينة صنعت وما قصتها وكيف نجىٰ الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكِّرٌ بأصله.

وقوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ أي: يعقلها أولو الألباب ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة؛ فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله

لعدم وعيهم عن الله، وتفكرهم بآياته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة]

[١٣-١٨] لما ذكر تعالىٰ ما فعله تعالىٰ بالمكذبين لرسله وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا وأن الله نجىٰ الرسل وأتباعهم= كان هذا مقدمة للجزاء الأخروي وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة. فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة نفخةً واحدةً فتخرج الأرواح فتدخل كل روح في جسدها فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: فتّتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها؛ فكان الجميع ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه]، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها.

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقّق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ﴾؛ أي: علىٰ جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أملاك في غاية القوة إذا أتىٰ للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ علىٰ الله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا من أجسادكم وذواتكم ولا من أعمالكم وصفاتكم، فإن الله تعالىٰ عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاة عراة غرلا في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة]

[١٩-٢٠] وهؤلاء هم أهل السعادة يُعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزا لهم وتنويها بشأنهم ورفعا لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق علىٰ ما منَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ أي: دونكم كتابي فاقرأوه فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذي أوصلني إلىٰ هذه الحال، ما من الله به عليّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾؛ أي: أيقنت فالظن هنا بمعنىٰ اليقين.

[٢١-٢٤] ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾؛ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذّ الأعين، وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ المنازل والقصور عالية المحل.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾؛ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة، سهلة التناول علىٰ أهلها، ينالها أهلها قياما وقعودا ومتكئين.

ويقال لهم إكراما: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾؛ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهي، ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾؛ أي: تاما كاملا من غير مكدِّر ولا منغِّص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصّالحة -وترك الأعمال السيئة- من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلىٰ الخلق، وذكر لله وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها اللهُ سببًا لدخول الجنة ومادة لنعيمها وأصلا لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة]

[٢٥-٢٩] هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتبهم المشتملة علىٰ أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزا لهم وخزيا وعارا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية.

﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾؛ أي: ليتني كنت نسيا منسيا، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلىٰ ماله وسلطانه، فإذا هو وبالٌ عليه لم يقدم منه لآخرته، ولا ينفعه لو افتدىٰ به من العذاب شيئا؛ فيقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾؛ أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئا، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾؛ أي: ذهب واضمحل فلم تنفع الجنود ولا الكثرة، ولا العَدد ولا العُدد، ولا الجاه العريض؛ بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

[٣٠-٣٧] فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾؛ أي: اجعلوا في عنقه غِلًّا يخنقه.

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾؛ أي: قلبوه علىٰ جمرها ولهبها.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾؛ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب.

فإن السبب الذي أوصله إلىٰ هذا المحل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ بأن كان كافرا بربه معاندا لرسله رادا ما جاءوا به من الحق.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾؛ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين فلا يطعمهم من ماله ولا يحض غيره علىٰ إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران:

الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله.

والإحسان إلىٰ الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوتون به.

وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا.

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿حَمِيمٞ﴾؛ أي: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب الله أو يفوز بثوابه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ:٢٣]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا

شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وليس له ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وهو: صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة والمرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم، لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الذين أخطؤوا الصراط المستقيم وسلكوا كل طريق يوصلهم إلىٰ الجحيم؛ فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة]

[٣٨-٤٣] أقسم تعالىٰ بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق؛ بل دخل في ذلك نفسه المقدسة، علىٰ صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالىٰ.

ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم علىٰ ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك: أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، ليروا أمرا مثل الشمس يدلهم علىٰ أنه رسول الله حقًّا، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قولا للبشر؛ بل هو كلام دال علىٰ عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته للخلق، وعلوه فوق عباده، وأيضا، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته.

[٤٤-٤٧] فإنه ﴿لَوْ تَقَوَّلَ﴾ عليه وافترىٰ ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ الكاذبة؛ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ وهو عرق متّصل بالقلب إذا انقطع هلك منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول -حاشا وكلا- تقوّل علىٰ الله لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم قدير علىٰ كل شيء، فحكمته تقتضي ألا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن علىٰ صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره علىٰ أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه علىٰ رسالته.

وقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾؛ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

[٤٨] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن الكريم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

[٤٩] ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، وأنه سيعاقبهم علىٰ تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

[٥٠] ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا علىٰ أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

[٥١] ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي: أعلىٰ مراتب العلم، فإن أعلىٰ مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلىٰ مما قبلها:

أولها: **علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.**

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

[٥٢] ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدِّسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله رب العالمين.

٧٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾ [المعارج]

[١-٤] يقول تعالىٰ مبينا لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعنتا وتعجيزا:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾؛ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المكذبين؛ فقال: **﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾** [الأنفال:٣٢] إلىٰ آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يدخر لهم في الآخرة، فلو عرفوا الله تعالىٰ، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا ذكر تعالىٰ من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة؛ فقال: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما جعلها علىٰ تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلىٰ الله، فيؤذن لهم من سماء إلىٰ سماء، حتىٰ تنتهي إلىٰ السماء التي فيها الله عَزَّوَجَلَّ، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظىٰ بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلىٰ السماء استأذنت فلا يؤذن لها، وأعيدت إلىٰ الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلىٰ الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة علىٰ السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلىٰ وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلىٰ، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولىٰ خلقه وتدبيره العلي الأعلىٰ، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه ما عمّهم وشملهم وأجرىٰ عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي.

فبؤسا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدِّروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب علىٰ وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل عليه.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالىٰ يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل علىٰ معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشؤون الربانية في ذلك اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالىٰ يخففه علىٰ المؤمن.

[٥-٧] وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾؛ أي: اصبر علىٰ دعوتك لقومك صبرا جميلا لا تضجُّر فيه ولا ملل؛ بل استمر علىٰ أمر الله، وادع عباده إلىٰ توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترىٰ من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر علىٰ ذلك خيرًا كثيرا.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ الضمير يعود إلىٰ البعث الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكِر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتىٰ تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبا؛ لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم، وما يكون فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠
يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج]

[٨-٩] أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباء منثورا فتضمحل.

[١٠-١٤] فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس [حقيقًا] أن ينخلع قلبه وينزعج لبّه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ﴾؛ أي: يشاهد الحميم -وهو: القريب- حميمه، فلا يبقىٰ في قلبه متسع لسؤاله عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ أي: زوجته ﴿وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ﴾؛ أي: قرابته ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾؛ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضا، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحدا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرضِ ثم ينجيه ذلك لم ينفعه.

[١٥-١٨] ﴿كَلَّآ ۖ﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾؛ أي: النار التي تتلظىٰ تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة.

﴿تَدْعُوا۟﴾ إلىٰ نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾؛ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فلا غرض له فيه، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم ينفق منها ما ينفعه ويدفع عنه النار، فالنار تدعوا هؤلاء إلىٰ نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ
۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج]

[١٩-٢١] وهذا الوصف للإنسان من حيث هو [وصف] طبيعته الأصلية، أنه هلوع.

وفسر الهلوع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضىٰ الله.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله علىٰ نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء.

[٢٢-٢٣] ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خوّلهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

وقوله في وصفهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتا دون وقت، أو يفعلها علىٰ وجه ناقص.

[٢٤-٢٥] ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ من زكاة وصدقة ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يتعرض للسؤال ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفطن له فيتصدق عليه.

[٢٦] ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل، وبما جاؤوا به من الكتب.

[٢٧-٢٨] ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقرِّبهم من عذاب الله.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٍ﴾؛ أي: هو العذاب الذي يُخشىٰ ويحذر.

[٢٩-٣١] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ فلا يطؤون بها وطأ محرما، من زنىٰ أو لواط، أو وطء في

دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضا من النظر إليها ومسِّها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضا وسائل المحرَّمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾؛ أي: سرّياتهم ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ في وطئهن في المحل الذي هو محلّ الحرث.

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحلّ الله إلىٰ ما حرم الله، ودلّت هذه الآية علىٰ تحريم نكاح المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

[٣٢] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾؛ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون علىٰ أدائها والوفاء بها، وهذا شاملٌ لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربِّه، كالتكاليف السِّرّية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شاملٌ للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفّاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

[٣٣] ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾؛ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريبا ولا صديقا ونحوه، ويكون القصد بإقامتها وجه الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق:٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء:١٣٥].

[٣٤] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ بالمداومة عليها علىٰ أكمل الوجوه.

[٣٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا، أنَّ الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق المرضية الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية؛ كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ حقوقهم وأماناتهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالىٰ.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ

مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج]

[٣٦-٣٩] يقول تعالىٰ مبينا اغترار الكافرين: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾؛ أي: قطعا متفرقة وجماعات متنوعة، كل منهم بما لديه فرح.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أيُّ سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوىٰ الكفر، والجحود لرب العالمين، ولهذا قال: ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق]، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعًا، ولا ضرا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج]

[٤٠-٤١] هذا إقسامٌ منه تعالىٰ بالمشارق والمغارب، للشمس والقمر والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات علىٰ البعث، وقُدرته علىٰ تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الواقعة:٦١].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي: ما أحدٌ يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

[٤٢] فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا علىٰ تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

[٤٣-٤٤] ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾؛ أي: كأنهم إلىٰ عَلَمٍ يؤمون ويقصدون؛ فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، ولا الالتواء عن نداء المنادي؛ بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي ربِّ العالمين.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أنَّ الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولىٰ علىٰ أفئدتهم،

فخشَعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقَطعت الأصوات.

فهذه الحال والمآل، هو يومُهم ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ ولا بدَّ من الوفاء بوعد الله.

تمت، والحمد لله

٧١- تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكيّة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ
نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا
٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ
وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم
مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا
تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥
وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ
يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا
فِجَاجٗا ٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ
مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣
وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ
لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن
تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا
وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ [نوح]

لم يذكر الله في هذه السورة إلا قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلىٰ التوحيد، ونهيه عن الشرك.

[١] فأخبر تعالىٰ أنه أرسل نوحا إلىٰ قومه رحمة بهم، وإنذارا لهم من عذاب الله الأليم، خوفا من استمرارهم علىٰ كفرهم، فيهلكهم الله هلاكا أبديا، ويعذِّبهم عذابا سرمديا.

[٢-٤] فامتثل نوح ﷺ لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين ذلك بيانا شافيا، فأخبرهم وأمرهم بأصل ذلك؛ فقال: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ وذلك بإفراده تعالىٰ بالعبادة والتوحيد، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب، ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ أي: يمتِّعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلىٰ وقت محدود، وليس المتاع أبدا، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ كما كفرتم بالله، وعاندتم الحق.

[٥-٧] فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكيا لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾؛ أي: نفورا عن الحق وإعراضا، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا فإذا استجابوا غفرت لهم، وهذا محض مصلحتهم، ولكن أبوا إلا تماديًا علىٰ باطلهم، ونفورا عن الحق، ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيُّهم نوح ﷺ، ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾؛ أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم بعدا عن الحق وبغضا له، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ علىٰ كفرهم وشرِّهم ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ علىٰ الحق ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

[٨-٩] ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾؛ أي: بمسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود.

[١٠-١٢] ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من الثواب، واندفاع العقاب، ورغبهم أيضا بخير الدنيا العاجل؛ فقال: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ أي: مطرا

متتابعا، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

[١٣-١٤] ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾؛ أي: خلقا من بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم إلىٰ آخر ما يصل إليه الخلق، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم علىٰ المعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر علىٰ أن يعيدهم بعد موتهم.

[١٥-١٦] واستدل أيضا بخلق السَّمٰوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾؛ أي: كل سماء فوق الأخرىٰ. ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ لأهل الأرض ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ ففيه تنبيه علىٰ عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة علىٰ رحمة الله وسعة إحسانه، العظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويُحب، ويُخاف ويرجىٰ.

[١٧-١٨] ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

[١٩-٢٠] ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾؛ أي: مبسوطة مهيأة للانتفاع بها، ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ فلولا أنه بسطها، لما أمكن ذلك؛ بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون علىٰ ظهرها.

[٢١-٢٤] ﴿قَالَ نُوحٞ﴾ شاكيا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد.

﴿إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ فيما أمرتهم به ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ أي: عصوا الرسول الناصح الدال علىٰ الخير، واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم ﴿إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ أي: هلاكا وتفويتا للأرباح فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟!

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾؛ أي: مكرا كبيرا بليغا في معاندة الحق.

﴿قَالُواْ﴾ لهم داعين إلىٰ الشرك مزينين له: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ فدعوهم إلىٰ التعصب علىٰ ما هم

عليه من الشرك، وألَّا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم؛ فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا -بزعمهم- علىٰ الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصىٰ رؤساؤهم للتابعين لهم ألَّا يدَعوا عبادة هذه الأصنام، ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ﴾؛ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرا من الخلق، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم للحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: فلم يبق محلٌّ لنجاحهم ولا لصلاحهم.

[٢٥] ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ في اليم الذي أحاط بهم ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتىٰ حل بهم النكال، ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمرّ، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

[٢٦-٢٧] ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ يدور علىٰ وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾؛ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح ذلك؛ لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، فلهذا استجاب الله له دعوته، فأغرقهم أجمعين ونجَّىٰ نوحا ومن معه من المؤمنين.

[٢٨] ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾؛ أي: خسارا، ودمارا، وهلاكا.

تم تفسير سورة نوح، والحمد لله

٧٢- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن]

[١] أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ صرفهم الله إلىٰ رسوله لسماع آياته لتقوم عليهم الحجة وتتم عليهم النعمة، ويكونوا منذرين لقومهم، وأمر الله رسوله أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلىٰ قلوبهم، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾؛ أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

[٢] ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ **والرُّشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلىٰ مصالح دينهم ودنياهم،** ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوىٰ، المتضمنة لترك الشر وجعلوا السبب الداعي لهم إلىٰ الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإنَّ ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدىٰ بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني علىٰ هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربىٰ والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

[﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن]]

[٣] ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فعلموا من جد الله وعظمته ما دلهم علىٰ بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدا، لأن له العظمة والجلال في كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي ذلك؛ لأنه يضاد كمال الغنىٰ.

[٤] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾؛ أي: قولًا جائرا عن الصواب، متعديًا للحد، وما حمله علىٰ ذلك إلا سفهه وضعف عقله، وإلا فلو كان رزينًا مطمئنا لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ [الجن]

[٥] أي: كنا مغترِّين قبل ذلك، غرتنا السادة والرؤساء من الجن والإنس، فأحسنَّا بهم الظن، وحسبناهم لا يتجرؤون علىٰ الكذب علىٰ الله، فلذلك كنا قبل هذا علىٰ طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، سلكنا طريقه، وانقدنا له، ولم نبالِ بقول أحد من الخلق يعارض الهدىٰ.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن]

[٦] أي: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزاع ويعبدونهم، فزاد الإنسُ الجنَّ ﴿رَهَقًا﴾؛ أي: طغيانا وتكبرا، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير -وهي الواو- ترجع إلىٰ ﴿ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: زاد الجنُّ الإنسَ ذعرا وتخويفا لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلىٰ الاستعاذة بهم، والتمسك بما هم عليه؛ فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ [الجن]

[٧] أي: فلما أنكروا البعث أقدموا علىٰ الشرك والطغيان.

[﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن]]

[٨-٩] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلىٰ أرجائها والدنوّ منها، ﴿وَشُهُبًا﴾ يُرمىٰ بها من استرق السمع، وهذا مخلاف عادتنا الأولىٰ، فإنا كنا نتمكَّن من الوصول إلىٰ خبر السماء، فـ﴿أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ﴾ فنتلقَّف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: مرصدا له، معدا لإتلافه وإحراقه، أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالىٰ أراد أن يحدث في الأرض حادثا كبيرا، من خير أو شر، فلهذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن]

[١٠] أي: لا بدّ من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرا أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله، ويُحدثه في الأرض، وفي هذا بيانٌ لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلىٰ الله تعالىٰ، والشر حذفوا فاعله تأدُّبا مع الله.

[﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن]]

[١١] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾؛ أي: فسَّاقٌ وفجار وكفار، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؛ أي: فرقا متنوعة، وأهواءً متفرقة، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾ [الجن]

[١٢] أي: وأنَّا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأنَّ نواصينا بيد الله فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفِرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

[﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۝١٤﴾ [الجن]]

[١٣] ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده، أثَّر في قلوبنا فـ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾.

ثم ذكروا ما يرغِّب المؤمن؛ فقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: من آمن به إيمانا صادقا؛ فلا عليه نقص ولا أذىٰ يلحقه، وإذا سلم من الشر حصل له الخير، فالإيمان سبب داع إلىٰ حصول كل خير وانتفاء كل شر.

[١٤] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلىٰ الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾ [الجن]

[١٥-١٧] ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وذلك جزاءً علىٰ أعمالهم، لا ظُلم من الله لهم، فإنهم ﴿لَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المثلىٰ ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ أي: هنيئًا مريئًا، ولم يمنعهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾؛ أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتّبعه وينقد له؛ بل لَهَا عنه وغفل، ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي: بليغا شديدا.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ [وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن]]

[١٨] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾؛ أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محالِّ العبادة مبنية علىٰ الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته.

[١٩] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾؛ أي: يسأله ويتعبَّد له ويقرأ القرآن كَاد الجن من تكاثرهم عليه ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾؛ أي: متلبّدين متراكمين حرصا علىٰ سماع ما جاء به من الهدىٰ.

[٢٠] ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، مبيِّنا حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ أي: أوحِّده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

[٢١-٢٢] ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبدٌ ليس لي من الأمر والتصرُّف شيء.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾؛ أي: لا أحد أستجير به يُنقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرًّا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله شيئا إن أراده بسوء فغيره من الخلق من باب أولىٰ وأحرىٰ.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: ملجأً ومنتصرا.

[٢٣] ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾؛ أي: ليس لي مزيَّةٌ علىٰ الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقه إليه، وبذلك تقوم الحجة علىٰ الناس، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ

﴿جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة.

وأما مجرد المعصية فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلّت علىٰ ذلك آيات القرآن والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمّة هذه الأمة.

[٢٤] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: شاهدوه عيانا، وجزموا أنه واقعٌ بهم، ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فُرادىٰ كما خلقوا أول مرة.

[٢٥-٢٦] ﴿قُلۡ﴾ لهم إن سألوك فقالوا: متىٰ هذا الوعد؟ ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾؛ أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من الخلق؛ بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب.

[٢٧] ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾؛ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرُّسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتىٰ يبلّغوه علىٰ حقيقته، من غير أن تقربه الشياطين فيزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾؛ أي: يحفظونه بأمر الله.

[٢٨] ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ بذلك ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه، ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

وفي هذه السورة فوائد عديدة

منها: وجود الجن، وأنهم مكلّفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوثٌ إلىٰ الجن، كما هو مبعوثٌ إلىٰ الإنس، فإنَّ الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحىٰ إليه ويبلِّغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلىٰ الإيمان هو ما تحقَّقوه من هداية القرآن، وحُسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوَّته، والسماء محروسة بالنجوم،

والشياطين قد هربت من أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأنّ الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما تبتهج به القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن علىٰ استماعهم للرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أنَّ هذه السورة قد اشتملت علىٰ الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمدا ﷺ إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرا؛ بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والظلم اتخاذ من هذا وصفه إلهًا آخر.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحدٌ من الخلق، إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شيءٍ منها.

تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

٧٣- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل]

[١-٥] ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ المتغطي بثيابه كالمدثّر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه، فرأىٰ أمرا لم ير مثله، ولا يقدر علىٰ الثبات عليه إلا المرسلون، فاعتراه عند ذلك انزعاج حين رأىٰ جبريل عليه السلام، فأتىٰ إلىٰ أهله؛ فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: «اقرأ» فقال: «ما أنا بقارئ» فغطّه حتىٰ بلغ منه الجَهد، وهو يعالجه علىٰ القراءة، فقرأ ﷺ، ثم ألقىٰ اللهُ عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتىٰ بلغ مبلغا ما بلغه أحد من المرسلين.

فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وُجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصَّبر علىٰ أذية قومه، ثم أمر بالصدع بأمره وإعلان دعوتهم إلىٰ الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالىٰ أنه لم يأمره بقيام الليل كله؛ بل قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

ثم قدَّر ذلك فقال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾؛ أي: من النِّصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثُّلث ونحوه.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: علىٰ النصف، فيكون نحو الثلثين ، ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ فإن ترتيل القرآن

به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبّد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيقٌ أن يتهيأ له، ويرتل، ويُتفكر فيما يشتمل عليه.

[٦] ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ أي: أقرب إلىٰ حصول مقصود القرآن، يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقلّ الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

[٧] وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذه المقاصد، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾؛ أي: ترددا في حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرُّغه التفرغ التام.

[٨] ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ شاملٌ لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ أي: انقطع إليه، فإن الانقطاع إلىٰ الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

[٩] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلّها، فهو تعالىٰ رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحةٌ له من العالم العلوي والسفلي، فهو ربُّ كل شيء وخالقه ومدبره.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود إلَّا وجهه الأعلىٰ، الذي يستحقُّ أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظًا ومدبرًا لأمورك كلها.

[١٠] فلما أمره الله بالصلاة خصوصا، وبالذكر عموما، وذلك يحصل للعبد ملكةٌ قوية في تحمل الأثقال، وفعل المشقّ من الأعمال، أمره بالصبر علىٰ ما يقوله المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي علىٰ أمر الله، لا يصده عنه صادّ، ولا يرده رادّ، وأن يهجرهم هجرا جميلا؛ وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه؛ بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

[١١] ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم، وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾؛ أي: أصحاب النَّعمة والغنىٰ، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدَّهم من فضله كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

ثم توعَّدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزَّمل]

[١٢-١٣] أي: إن عندنا ﴿أَنكَالًا﴾؛ أي: عذابا شديدا، جعلناه تنكيلا للذي لا يزال مستمرا على ما يغضب الله، ﴿وَجَحِيمًا﴾؛ أي: نارا حامية، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المُنتن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: موجعًا مفظعا.

[١٤] وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم، فـ﴿كَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصِّلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تُبَسُّ بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ [المزَّمل]

[١٥-١٦] يقول تعالىٰ: احمدوا ربكم علىٰ إرسال هذا النبيِّ الأميِّ العربي البشير النذير، الشاهد علىٰ الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروا، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفِرعون حين أرسل الله إليه موسىٰ بن عمران، فدعاه إلىٰ الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه؛ بل عصاه، فأخذه الله ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ أي: شديدا بليغا.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ [المزَّمل]

[١٧-١٨] أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم خطره، الذي يشيِّب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتتفطر به السماء وتنتثر نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾؛ أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ [المزَّمل]

[١٩] أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقا موصلا إليه، وذلك باتباع شرعه،

فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكَّنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل]

[٢٠] ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباها وعناء زائدًا؛ أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص، ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾؛ أي: مما تعرفون ولا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورا بالصلاة ما دام نشيطا، فإذا فتر أو كسل أو نعس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه، فليصل المريض ما يسهل عليه، ولا يكون أيضا مأمورا بالصلاة قائما عند مشقة ذلك؛ بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها وله أجر ما كان يعمل صحيحا، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكفَّفوا عنهم؛ أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

وكذلك ﴿ءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ فذكر تعالى تخفيفين:

تخفيفا للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت؛ بل يتحرىٰ الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول.

وتخفيفا للمريض والمسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من جهاد، أو حج، أو غيره، فإنه أيضا يراعي ما لا يكلفه، فلله الحمد والثناء، حيث لم يجعل علينا في الدين من حرج؛ بل سهل شرعه، وراعىٰ أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها، وحدودها وشروطها، وجميع مكملاتها، ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾؛ أي: خالصًا لوجه الله، بنية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث علىٰ عموم الخير وأفعاله؛ فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعافٍ كثيرة.

وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخي، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فواأسفاه علىٰ أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه علىٰ أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظُ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها.

فلك اللّٰهُمَّ الحمد، وإليك المشتكىٰ، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث علىٰ أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما ألّا يفعله أصلا أو يفعله علىٰ وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتىٰ لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسيرها والحمد لله.

٧٤- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر]

[١-٢] تقدم أن المزمل والمدثر بمعنىٰ واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر علىٰ أذىٰ قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدعوة، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قُمۡ﴾؛ أي: بجد ونشاط ﴿فَأَنذِرۡ﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذَر عنه، ليكون ذلك أدعىٰ لتركه.

[٣] ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾؛ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

[٤] ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ يحتمل أن المراد بالثياب أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقِّصات من شرك ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصا في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروطها.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، أنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصا في الدخول في الصلوات.

[٥] وإذا كان مأمورا بطهارة الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمرا له بترك الذنوب،

صغارها وكبارها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في هذا الشرك فما دونه.

[٦] ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾؛ أي: لا تمنن علىٰ الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتستكثر بتلك المنة، وترىٰ لك الفضل عليهم؛ بل أحسن المنة، بل أحسن إلىٰ الناس مهما أمكنك، وانس عندهم إحسانك، واطلب أجرك من الله تعالىٰ واجعل من أحسنت إليه وغيره علىٰ حد سواء.

وقد قيل: إن معنىٰ هذا، لا تعط أحدا شيئا، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصًّا بالنبي ﷺ.

[٧] ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾؛ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالىٰ، فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر فيه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالىٰ، ودعا الخلق إلىٰ تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد من دون الله وما يعبد معه من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة علىٰ الناس -بعد منّة الله- من غير أن يطلب [منهم علىٰ ذلك] جزاء ولا شكورا، وصبر لربه أكمل صبر، فصبر علىٰ طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر علىٰ أقداره المؤلمة، حتىٰ فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدَّثر]

[٨-١٠] أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ لكثرة أهواله وشدائده.

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار، ومفهوم ذلك أنه علىٰ المؤمنين يسير؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا
﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ
﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا
مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ [المدثر]

[١١-٣٠] هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذما لم يذم به غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزىٰ، فقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾؛ أي: خلقته منفردا، بلا مال ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أربّيه وأعطيه، فـ﴿جَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾؛ أي: كثيرا، ﴿وَ﴾ جعلت له ﴿بَنِينَ﴾؛ أي: ذكورا ﴿شُهُودًا﴾؛ أي: حاضرين عنده علىٰ الدوام، يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾؛ أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتىٰ انقادت له مطالبه، وحصل له ما يشتهي ويريد، ﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّآ﴾؛ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾؛ أي: عرفها ثم أنكرها، ودعته إلىٰ الحق فلم ينقد لها ولم يكفه أنه أعرض عنها وتولىٰ؛ بل جعل يحاربها ويسعىٰ في إبطالها، ولهذا قال عنه:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾؛ أي: في نفسه ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولا يبطل به القرآن.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لأنه قدّر أمرا ليس في طوره، وتسور علىٰ ما لا يناله هو ولا أمثاله، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ما يقول، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضا له، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾؛ أي: تولىٰ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ نتيجة سعيه الفكري والعملي والقولي أن قال:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ أي: ما هذا كلام الله؛ بل كلام البشر، وليس أيضا كلام البشر الأخيار، بل كلام الأشرار منهم والفجار، من كل كاذب سحار.

فتبا له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير أي إنسان، أن يكون أعلىٰ الكلام وأعظمه، كلام الرب الكريم، الماجد العظيم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟!

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، علىٰ وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالىٰ، فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾؛ أي:

لا تبقي من الشدة، ولا علىٰ المعذب شيئا إلا وبلغته.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾؛ أي: تلوّحهم وتصليهم في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم].

[٣١] ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمىٰ فتنة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب، ويدل علىٰ هذا ما ذكر بعده في قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله علىٰ رسوله محصلا لهذه المقاصدالجليلة، ومميزا للصادقين من الكاذبين، ولهذا قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ وهذا علىٰ وجه الحيرة والشك منهم، والكفر بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزل علىٰ رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله علىٰ رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمة في حقه، والواجب أن يتلقىٰ ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا ﴿يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير= فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾؛ أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصودا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣
وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا
ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ
۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ
وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر]

[٣٢-٣٤] ﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنىٰ: حقا، أو بمعنىٰ (ألَا) الاستفتاحية، فأقسم تعالىٰ بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات علىٰ آيات الله العظيمة، الدالة علىٰ كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه.

[٣٥-٣٧] والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي النار ﴿لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾؛ أي: لإحدىٰ العظائم الطامة والأمور الهامة، فإذا أعلمناكم بها، وكنتم علىٰ بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقرّبه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له وعما يحبه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلىٰ جهنم؛ كما قال تعالىٰ: **﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾** [الكهف:٢٩] الآية.

[٣٨-٤٨] ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ من أفعال الشر وأعمال السوء ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب، ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ فإنهم لم يرتهنوا؛ بل أطلقوا وفرحوا ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: في جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتىٰ أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أيّ حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالىٰ؟ فقال بعضهم لبعض: (هل أنتم مطلعون عليهم) فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾؛ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب [استحقيتموها؟] فـ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾؛ أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هذه آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق **يوم الدِّين**؛ الذي هو محل

الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمر عملنا على هذا المذهب الباطل ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾؛ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم.

[٤٩-٥٣] فلما بين الله مآل المخالفين، وبين ما يُفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾؛ أي: صادِّين غافلين عنها، ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾؛ أي: كأنَّهم حمر وحش نفرت فنفَّر بعضها بعضا، فزاد عدوها، ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾؛ أي: من صائد ورامٍ يريدها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا النفور والإعراض يدعون الدعاوى الكبار.

فـ ﴿يُرِيدُ كُلُّ﴾ واحد ﴿ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذَّبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، لأنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبيِّن الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: ﴿كَلَّاۖ﴾؛ أي: لا نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز؛ ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرى منهم ما جرى.

[٥٤-٥٦] ﴿كَلَّآ﴾ [إنَّها] ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ لأنه قد بيَّن له السبيل، ووضح له الدليل.

﴿وَمَا [يَذۡكُرُونَ] إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فإن مشيئة الله نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلًا وجعل ذلك تابعا لمشيئته، و﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ أي: هو أهلٌ أن يتقَّى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تمت، ولله الحمد والمنة

٧٥- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة]

[١] ليست ﴿لَآ﴾ ها هنا نافية، ولا زائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو: البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

[٢] ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وهي جميع النفوس الخيّرة والفاجرة، سميت (لوامة) لكثرة تلونها وترددها وعدم ثبوتها علىٰ حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها علىٰ ما فعلت؛ بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا علىٰ ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلىٰ الجزاء، بين مستحقّ الجزاء.

[٣-٤] ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذبون بيوم القيامة؛ فقال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله علىٰ خلق عظامه التي هي عماد البدن، فردّ عليه بقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذلك مستلزم لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمّت خلقة الجسد.

[٥-٦] وليس إنكاره لقدرة الله تعالىٰ قصورًا بالدليل الدالِّ علىٰ ذلك، وإنما وقع ذلك منه لأن إرادته وقصده التكذيب بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة]

[٧-١٠] أي: ﴿فَإِذَا﴾ كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾؛ أي: ذهب نوره وسلطانه، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلَقهما الله تعالىٰ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكوّر الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرىٰ العباد أنهما عبدان مسخران، وليرىٰ من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ حين يرىٰ تلك القلاقل المزعجات: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؛ أي: أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وألمّ بنا؟

[١١-١٣] ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾؛ أي: لا ملجأ لأحدٍ دون الله، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ لسائر العباد فليس في إمكان أحدٍ أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع؛ بل لا بد من إيقافه ليجزىٰ بعمله، ولهذا قال: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

[١٤-١٥] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾؛ أي: شاهد ومحاسب، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فإنها معاذيرُ لا تقبل؛ بل يقرّ بعمله، فيقر به، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٥].

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئًا؛ لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل؛ ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ

﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة]

[١٦-١٩] كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته عليه بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرُغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إيَّاه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ**﴾ [طه:١١٤]، وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ثم ضمِن له تعالىٰ أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره؛ فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمِنه الله لك فلا موجب لذلك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: إذا أكمل جبريل ما يوحىٰ إليك؛ فحينئذ اتبع ما قرأه فأقرأه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾؛ أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلىٰ ما يكون، فامتثل ﷺ لأدبِ ربِّه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية أدبٌ لأخذ العلم، ألا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، ألَّا يبادر برده أو قبوله، قبل الفراغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهما يتمكن فيه من الكلام علىٰ وجه الصواب، وفيها: أن النبي ﷺ كما بيَّن للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة]

[٢٠-٢١] أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها علىٰ الآخرة، فتذرون العمل لها، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنَّكم لم تخلقوا لها، وكأن هذه الدار هي دار القرار، التي تُبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعىٰ لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل، فلو آثرتم الآخرة علىٰ الدنيا، ونظرتم العواقب نظر البصير العاقل لأنجحتم وربحتم ربحا لا خسار معه، وفُزتم فوزا لا شقاء يصحبه.

[٢٢-٢٣] ثم ذكر ما يدعو إلىٰ إيثار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤْثرين

للآخرة علىٰ الدنيا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة بهيّة، لها رونقٌ ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: ينظرون إلىٰ ربهم علىٰ حسب مراتبهم:

منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا.

ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة.

فيتمتعون بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم؛ فازدادوا جمالا إلىٰ جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

[٢٤-٢٥] وقال في المؤثرين العاجلة علىٰ الآجلة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾؛ أي: معبسة وكدرة، خاشعة ذليلة، ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: عقوبة شديدة، وعذاب أليم، فلذلك تغيَّرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة]

[٢٦-٣٠] يعظ تعالىٰ عباده بذكر المحتضر حال السياق، وأنه ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ روحه ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾؛ وهي: العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتدّ الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾؛ أي: من يرقيه من الرقية؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية؛ ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء فلا مرّد له، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ للدنيا، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته ولم تزل معه، فتساق إلىٰ الله تعالىٰ ليجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.

فهذا الزجر، الذي ذكره الله يسوق القلوب إلىٰ ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها.

[٣١-٣٣] ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات لا يزال مستمرا علىٰ بغيه وكفره وعناده.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾؛ أي: لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ﴿وَلَا صَلَّىٰ

﴿٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالحق في مقابلة التصديق، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائفٍ من ربه، بل ﴿ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾؛ أي: ليس علىٰ باله شيء.

[٣٤-٣٥] ثم توعده بقوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ وهذه كلمات وعيد، كررها لتكرير وعيده.

[٣٦-٤٠] ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾؛ أي: مهملا، لا يؤمر ولا يُنهىٰ، ولا يثاب ولا يعاقب، هذا حسبان باطل وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المني ﴿عَلَقَةٗ﴾؛ أي: دما، ﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الحيوان وسواه؛ أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي خلق الإنسان وطوَّره إلىٰ هذه الأطوار المختلفة ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بلىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة،

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمَّد وسلم.

٧٦- تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِنْسَان

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان]

[١] ذكر الله في هذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسطها؛ فذكر أنه مر عليه دهر طويل وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم؛ بل ليس مذكورا.

[٢] ثم لما أراد خلقه خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلًا ﴿مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾؛ أي: ماء مهين مستقذَرٍ ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ بذلك لنعلم هل يرىٰ حاله الأولىٰ ويتفطَّن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ فأنشأه الله، وخلق له القوىٰ الظاهرة والباطنة؛ كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتمّها له وجعلها سالمة يتمكّن بها من تحصيل مقاصده.

[٣] ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إليه وبينها، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إليه، ثم أخبره بالطريق الموصلة إلىٰ الهلاك، ورهّبه عنها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلىٰ شاكرٍ لنعمة الله عليه، قائمٍ بما حمله الله من حقوقه، وإلىٰ كفور للنعم، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية؛ فردها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلىٰ الهلاك.

ثم ذكر تعالىٰ الفريقين عند الجزاء؛ فقال:

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى

ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤
وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦
وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ
وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠
عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ
هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ فَٱصۡبِرۡ
لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ
فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ
خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ
وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان]

[٤] أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجرأ على المعاصي ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ في نار جهنم، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٢].

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾ تغل بها أيديهم إلىٰ أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وَسَعِيرًا﴾؛ أي: نارا تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦] وهذا العذاب الدائم مؤبد لهم، مخلدون فيه سرمدا.

[٥] وأما ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾؛ وهم: الذين برت قلوبهم بما فيها من معرفة الله ومحبته، والأخلاق الجميلة، فبرَّت أعمالهم، واستعملوها بأعمال البر فأخبر أنهم ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾؛ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور؛ أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كل مكدِّر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الجنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾ [الواقعة]، ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [آل عمران:١٥]، ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام:١٢٧]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزُّخرُف:٧١].

[٦] ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاده؛ بل له

مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرا، أنىٰ شاؤوا، وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرفوها إلىٰ البساتين الزاهرات، أو إلىٰ الرياض النّضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلىٰ أيِّ جهة يرونها من الجهات المؤنقات.

[٧] ثم ذكر جملة من أعمالهم؛ فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾؛ أي: بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم، إلا بإيجابهم علىٰ أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولىٰ وأحرىٰ، ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾؛ أي: فاشيا منتشرا، فخافوا أن ينالهم شرُّه، فتركوا كل سببٍ موجب لذلك.

[٨-١٠] ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام؛ لكنهم قدموا محبة الله علىٰ محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولىٰ الناس وأحوجهم ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾، ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالىٰ، ويقولون بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾؛ أي: لا جزاء ماليا ولا ثناء قوليا، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾؛ أي: شديد الجهمة والشر ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾؛ أي: ضنكًا ضيقًا.

[١١] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَضۡرَةٗ﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورٗا﴾ في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

[١٢] ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ علىٰ طاعته، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه فتركوها، وعلىٰ أقداره المؤلمة، فلم يتسخَّطوها، ﴿جَنَّةٗ﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، ﴿وَحَرِيرٗا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج]، ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال علىٰ حال صاحبه.

[١٣] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾ **الاتكاء**: التمكّن من الجلوس، في حال الطمأنينة والراحة، والرفاهية، **والأرائك**؛ هي: السرر التي عليها اللباس المزين، ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿شَمۡسٗا﴾ يضرهم حرها ﴿وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾؛ أي: بردا شديدا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألّم من حر ولا برد.

[١٤] ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾؛ أي: قُرِّبت ثمراتها من مريدها تقريبا ينالها،

وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

[١٥-١٦] ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم علىٰ أهل الجنة ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: مادتها فضة، وهي علىٰ صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها علىٰ صفاء القوارير.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾؛ أي: قدروا الأواني المذكورة علىٰ قدر ريّهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تكفهم لريهم. ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم علىٰ ما قدروا في خواطرهم.

[١٧-١٨] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: خلطها ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه.

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

[١٩] ﴿وَيَطُوفُ﴾ علىٰ أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في خدمتهم ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ من حسنهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدّامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون في مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم.

[٢٠] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾؛ أي: رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة المشجية ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورا، ولذة وحبورا، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك وأعظمه الفوز برضا الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان المالك الملك، الحق المبين،

الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، كما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه.

[٢١] ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾؛ أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسُّندس: ما غلظ من الحرير، والإستبرق: ما رق منه. ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولا؛ لأنه لا أصدق منه قيلا ولا حديثا.

وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرا لما في بطونهم من كل أذىٰ وقذىٰ.

[٢٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ علىٰ ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾؛ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

[٢٣] وقوله تعالىٰ لما ذكر نعيم الجنة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ فيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر علىٰ ذلك.

[٢٤] ولهذا قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؛ أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق، ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿ءَاثِمًا﴾؛ أي: فاعلا إثما ومعصية، ولا ﴿كَفُورًا﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون معصية لله، فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.

[٢٥] ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله، والإكثار من ذكره= أمره الله بذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

[٢٦] ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾؛ أي: أكثر له من السجود، وذلك متضمن لكثرة الصلاة، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل].

[٢٧] وقوله ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: المكذِّبين لك أيها الرسول بعد ما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا،

ومع ذلك، لم يفد فيهم ذلك شيئا؛ بل لا يزالون يؤثرون ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ويطمئنون إليها، ﴿وَيَذَرُونَ﴾؛ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وَرَآءَهُمْ﴾؛ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر] فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

[٢٨] ثم استدل عليهم وعلىٰ بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوىٰ الظاهرة والباطنة، حتىٰ تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم علىٰ هذه الحالة، قادر علىٰ أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقّلهم في هذه الدار إلىٰ هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدىٰ؛ لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرىٰ، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

[٢٩] ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقا موصلا إليه، فالله يبيّن الحق والهدىٰ، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

[٣٠] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

[٣١] ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء علىٰ الهدىٰ ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بظلمهم وعدوانهم.

تمت، ولله الحمد

٧٧- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات]

[١-٦] أقسم تعالىٰ علىٰ البعث والجزاء علىٰ الأعمال، بـ﴿ٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، وهي: الملائكة التي يرسلها الله تعالىٰ بشؤونه القدرية وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية ووحيه إلىٰ رسله.

و ﴿عُرۡفٗا﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ وهي: أيضا الملائكة التي يرسلها الله تعالىٰ وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره؛ كالريح العاصف، أو: أن **العاصفات**: الرياح الشديدة التي يسرع هبوبها.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ يحتمل أن المراد بها الملائكة، تنشر ما دبّرت علىٰ نشره، أو أنها السحاب التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها.

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ هي: الملائكة تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، تُلقيه إلىٰ الرسل.

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾؛ أي: إعذارا وإنذارا للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع أعذارهم، فلا يكون لهم حجة علىٰ الله.

[٧] ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء علىٰ الأعمال ﴿لَوَٰقِعٞ﴾؛ أي: متحتِّم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

[٨-١٤] فإذا وقع حصل من التغيُّر للعالم والأهوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشتدُّ له الكروب،

فتنطمس النجوم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝﴾ [طه]، وذلك اليوم هو اليوم الذي ﴿أُقِّتَتْ﴾ فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل. ثم أجاب بقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: بين الخلائق، بعضهم من بعض، وحساب كل منهم منفردا.

[١٥] ثم توعد المكذب بهذا اليوم؛ فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فلذلك استحقوا العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ [المرسلات]

[١٦-١٩] أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عقابه، فلِم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ [المرسلات]

[٢٠-٢٤] أي: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتىٰ جعله الله ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ووقت مقدر.

﴿فَقَدَرْنَا﴾؛ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلىٰ العلقة، إلىٰ المضغة، إلىٰ أن جعله الله جسدًا، ونفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ يعني بذلك نفسه المقدسة لأن قدره تابع لحكمته، موافقٌ للحمد.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبينات.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ [المرسلات]

[٢٥-٢٨] أي: أما مننا عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كِفَاتًا﴾ لكم.

﴿أَحْيَآءً﴾ في الدُّور، ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله علىٰ عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمة في حقِّهم، وسترا لهم، عن كون أجسادهم بادية للسِّباع وغيرها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالًا ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض، ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ أي: عذبا زُلالا؛ قال تعالىٰ: ﴿**أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝**﴾ [الواقعة]

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾ [المرسلات]

[٢٩-٣٤] هذا من الويل الذي أعد للمجرمين للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: إلىٰ ظل نار جهنم التي تتمايز في خلاله (ثلاث شعب)؛ أي: قطع من النار تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظل؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ من مكث فيه ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾؛ بل اللهب قد أحاط به، يمنة ويسرة ومن كل جانب، كما قال تعالىٰ: ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**﴾[الزُّمَر:١٦].

﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝**﴾ [الأعراف].

ثم ذكر عظم شرر النار، الدال علىٰ عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ وهي السود التي تضرب إلىٰ لون فيه صفرة، وهذا يدل علىٰ أن النار مظلمة، لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء، كريهة المنظر، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها من الأعمال المقربة منها، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ

جَمَعۡنَـٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المرسلات]

[٣٥-٣٧] أي: هذا اليوم العظيم الشديد علىٰ المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾؛ أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا، ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم].

[٣٨-٤٠] ﴿هَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَـٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ﴾ تقدرون علىٰ الخروج عن ملكي وتنجون به من عذابي، ﴿فَكِيدُونِ﴾؛ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَـٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن].

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَـٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المرسلات]

[٤١-٤٥] لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر مثوبة المحسنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿فِي ظِلَـٰلٖ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهرة البهية. ﴿وَعُيُونٖ﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما، ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ أي: من خيار الفواكه وأطيبها، ويقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾؛ أي: من غير منغّص ولا مكدّر، ولا يتم هناؤه حتىٰ يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتىٰ يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلىٰ جنات النعيم المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلىٰ عباد الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفىٰ به حزنا وحرمانا.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات]

[٤٦-٥٠] هذا تهديد ووعيد للمكذِّبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فتنقطع عنهم اللذات، وتبقىٰ عليهم التبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد علىٰ هذا؟

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسدّ عنهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلىٰ مراتب الصدق واليقين علىٰ الإطلاق.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل؟ أم بكلام مشرك كذاب أفاك مبين؟

فليس بعد النور المبين إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين، الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فتبًّا لهم ما أعماهم! وويحا لهم ما أخسرهم وأشقاهم!

نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم.

تمت

٧٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ عَمَّ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥﴾ [النبأ]

[١-٥] أي: عن أيِّ شيءٍ يتساءل المكذِّبون بآياتِ الله؟ ثم بيَّنَ ما يتساءلون عنه؛ فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعُهم، وانتشر فيه خلافهم علىٰ وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النَّبأ الذي لا يقبل الشكَّ ولا يدخلُه الريب؛ ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتىٰ يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذِّبون، حين ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾ [الطور]، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور].

ثم ذَكَر تعالىٰ النعم والأدلة الدالة علىٰ صدق ما جاءت به الرُّسل فقال:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النبأ]

[٦-١٦] أي: أمَا أنعمنا عليكم بنعمٍ جليلة، فجعلنا لكم ﴿ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾؛ أي: ممهَّدة مذلَّلة لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسُّبل.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾: تُمسِك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد.

﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ أي: ذكورا وإناثًا من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما إلىٰ الآخر، فتتكوَّن المودةُ والرحمة، وتنشأ عنهما الذُّرّية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة المَنكح.

﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾؛ أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم، التي متىٰ تمادت بكم أضرّت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يُغشي الناس لتسكن حركاتهم الضّارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾؛ أي: سبع سماوات، في غاية القوّة، والصلابة والشِّدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفًا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشّمس؛ فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾ نبَّه بالسراج علىٰ النِّعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهّاج وهي حرارتها علىٰ ما فيها من الإنضاج والمنافع.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾؛ أي: السَّحاب ﴿مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾؛ أي: كثيرًا جدًّا.

﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا﴾ من بُرٍّ وشعير وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون.

﴿وَنَبَاتٗا﴾: يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتًا لمواشيهم.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾؛ أي: بساتين ملتفَّةً، فيها من جميع أصناف الفواكه اللّذيذة.

فالذي أنعم عليكم بهذه النِّعم الجليلة، التي لا يقدّر قدرها، ولا يحصىٰ عددها، كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه علىٰ معاصيه وتجحدونها؟

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ]

[١٧-٢٥] ذكر الله تعالىٰ ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذِّبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأنَّ الله جعله ﴿مِيقَٰتٗا﴾ للخلق.

﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ فيأتون ﴿أَفۡوَاجٗا﴾ ويجري فيه من الزّعازع والقلاقل ما يشيب له المولود، وتنزعج له القلوب، فتسير الجبال حتىٰ تكون كالهباء المبثوث، وتنشق السماء حتىٰ تكون أبوابًا، ويفصل الله بين الخلائق بحُكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطّاغين،

وجعلها مثوىٰ لهم ومآبا، وأنَّهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة، و(الحقب) علىٰ ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة؛ فإذا وردوها ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾؛ أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾؛ أي: ماءً حارًّا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، ﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهو: صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق.

[٢٦-٣٠] وإنَّما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم وفاقًا علىٰ ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله؛ ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾؛ أي: كذبوا بها تكذيبا واضحا صريحا وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾؛ أي: أثبتناه في اللوح المحفوظ، فلا يحسب المجرمون أنا عذَّبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسىٰ منها مثقال ذرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

﴿فَذُوقُواْ﴾؛ أيُّها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فكل وقتٍ وحين يزداد عذابهم، وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ]

[٣١-٣٦] لما ذكر حال المُجرمين؛ ذكر مآل المتقين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾؛ أي: الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عن معصيته؛ فلهم مفاز ومنجي، وبعدٌ عن النار. وفي ذلك المفاز لهم ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي: البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الثمار التي تتفجّر بين خلالها الأنهار، وخصّ العنب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات علىٰ مطالب النفوس ﴿كَوَاعِبَ﴾ وهي: النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من

شبابهن، وقوتهن ونضارتهن.

(والأتْرَاب) اللّاتي علىٰ سنٍّ واحدٍ متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السِّنّ الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدلُ سن الشباب.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾؛ أي: مملوءةً من رحيق، لذَّةٍ للشاربين، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾؛ أي: كلاما لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّبًا﴾؛ أي: إثمًا.

كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة].

وإنَّما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفَّقهم الله لها، وجعلها سببا للوصول إلىٰ كرامته.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠﴾ [النبأ]

[٣٧-٣٩] أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربّهم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِۖ﴾ الذي رحمته وسعت كلَّ شيء، فرباهم ورحمهم، ولطَف بهم، حتىٰ أدركوا ما أدركوا.

ثم ذكر عظمته ومُلكه العظيم يوم القيامة، وأنَّ جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكتون ذلك اليوم لا يتكلمون، و﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إلَّا من أذن له الرحمن وقال صوابا، فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشَّرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلَّم به صوابا، لأن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّۖ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب، وفي ذلك اليوم ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريلُ ﷺ، الذي هو أشرف الملائكة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أيضًا يقوم الجميع ﴿صَفًّاۖ﴾ خاضِعين لله ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إلَّا بإذنه.

فلمَّا رغَّب ورهَّب، وبشَّر وأنذر؛ قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾؛ أي: عملًا وقدَم صدق يرجع إليه يوم القيامة.

[٤٠] ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أزِف مُقبلا وكل ما هو آت فهو قريب.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي: هذا الذي يهمُّه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا

تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾ [الحشر] الآيات.

فإن وجد خيرا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنَّون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشَّر كله، إنه جواد كريم.

تمت

٧٩- تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّازِعَاتِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ① وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ② وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ③ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ④ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ⑤ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ⑥ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ⑦ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ⑨ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ⑩ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ⑪ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑫ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ⑬ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ⑭﴾ [النازعات]

[١-٥] هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة علىٰ كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذه؛ يحتمل أن المقسم عليه الجزاء والبعث؛ بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متّحدان، وأنه أقسم علىٰ الملائكة؛ لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمّن الجزاء الذي تتولّاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوّة، وتغرق في نزعها حتىٰ تخرج الروح، فتجازىٰ بعملها.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ وهم الملائكة أيضًا، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أنّ النشط يكون لأرواح المؤمنين، والنزع لأرواح الكفار.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾؛ أي: المترددات في الهواء صعودا ونزولا ﴿سَبْحًا﴾.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ لغيرها ﴿سَبْقًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشّياطين في إيصال الوحي إلىٰ رُسل الله لئلا تسترقه.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ أي: الملائكة، الذين جعلهم الله أن يدبروا كثيرا من أمور العالم العلوي والسُّفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجَنة، والنار وغير ذلك.

[٦-٩] ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهي: قيام الساعة، ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾؛ أي: الرجفة الأخرىٰ التي تردفها وتأتي تِلوها، ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾؛ أي: منزعجة من شدّة ما ترىٰ وتسمع.

﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾؛ أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسُّف واستولت عليهم الحسرة.

[١٠-١٤] ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: الكفَّار في الدنيا، علىٰ وجه التكذيب: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾؛ أي: بالية فُتاتا.

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾؛ أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويُعيدهم بعدما كانوا عظاما نخرة، جهلًا منهم بقدرة الله، وتجرُّؤا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ينفخ في الصور؛ فإذا الخلائق كلهم ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ أي: علىٰ وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات]

[١٥-٢٥] يقول الله تعالىٰ لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقِّق وقوعه. أي: هل أتاك حديثه ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، وابتعثه بالوحي، واجتباه؛ فقال له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقولٍ لين، وخطاب لطيف، لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه].

﴿فَقُلۡ﴾ له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكِّي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلىٰ الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: أدلّك عليه، وأبيِّن لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه، ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون ممّا دعاه إليه موسىٰ.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ أي: جنس الآية الكبرىٰ، فلا ينافي تعددها ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ

مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝﴾ [الشعراء].

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَعَصَىٰ﴾ الأمر، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يجتهد في مبارزة الحقِّ ومحاربته، ﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده أي: جمعهم، ﴿فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ﴾ لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفَّهم، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾؛ أي: جعل عقوبته دليلا وزاجرا، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

[٢٦] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ فإن من يخشىٰ الله هو الذي ينتفع بالآيات والعِبر؛ فإذا رأىٰ عقوبة فرعون؛ عرف أن كل من تكبر وعصىٰ، وبارز الملك الأعلىٰ؛ يعاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحّلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن بها.

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝﴾ [النازعات]

[٢٧-٣٣] يقول تعالىٰ مبيِّنا دليلا واضحا لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾؛ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ ذات الجُرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَىٰهَا﴾ الله.

﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾؛ أي: جُرمها وصورتها، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بإحكامٍ وإتقان يحيِّر العقول، ويذهل الألباب، ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾؛ أي: أظلمه، فعمَّت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: أظهر فيه النُّور العظيم، حين أتىٰ بالشمس، فانتشر الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد خلق السَّماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ أي: أودع فيها منافعها.

وفسَّر ذلك بقوله: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾؛ أي: ثبّتها بالأرض، فدحىٰ الأرض بعد خلق السماء؛ كما هو نص هذه الآيات الكريمة، وأما خلق نفس الأرض؛ فمُقدم علىٰ خلق السماء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ [فُصِّلَت] إلىٰ أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فُصِّلَت] فالذي خلق السموات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الغبراء الكثيفة، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلّفين، فيجازيهم علىٰ أعمالهم؛ فمن أحسن فله الحسنىٰ، ومن

أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الساعة ثم الجزاء، فقال:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]

[٣٤-٣٦] أي: إذا جاءت القيامة الكبرىٰ، والشِّدة العظمىٰ، التي يهون عندها كلّ شدة؛ فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محبٍّ عن حبيبه. وَ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنىٰ زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمّه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كلُّ سبب ووصلة كانت في الدنيا سوىٰ الأعمال.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾؛ أي: جُعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد؛ قد هُيِّئت لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

[٣٧-٣٩] ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾؛ أي: جاوز الحد، بأن تجرأ علىٰ المعاصي الكبار، ولم يقتصر علىٰ ما حده الله.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ علىٰ الآخرة فصار سعيُه لها، ووقته مستغرقًا في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

[٤٠-٤١] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل؛ فأثّر هذا الخوف في قلبه؛ فـ﴿نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ﴾: هواها الذي يقيدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوىٰ والشَّهوة الصادّين عن الخير، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ المشتملة علىٰ كل خير وسرور ونعيم ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]

[٤٢-٤٤] أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متىٰ وقوعها و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾؛ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لمَّا كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية؛ بل

المصلحة في خفائه عليهم، طوىٰ علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه؛ فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ أي: إليه ينتهي علمها؛ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧].

[٤٥-٤٦] ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾؛ أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشىٰ مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يدي الله، فهم الذين لا يهمهم سوىٰ الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما من لا يؤمن بها، فلا يُبالىٰ به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبنيٌّ علىٰ العناد والتكذيب، وإذا وصل إلىٰ هذه الحال؛ كان الإجابة عنه عبثا، ينزه أحكم الحاكمين عنه.

تمت

والحمد لله رب العالمين.

٨٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾ [عبس]

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمىٰ يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصًا علىٰ هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغىٰ إلىٰ الغني، وصدَّ عن الأعمىٰ الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال:

[١-١٠] ﴿عَبَسَ﴾؛ أي: في وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في بدنه، لأجل مجيء الأعمىٰ له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ﴾؛ أي: الأعمىٰ ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أي: يتطهّر عن الأخلاق الرذيلة، ويتّصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾؛ أي: يتذكر ما ينفعه، فينتفع بتلك الذكرىٰ.

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرّسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكِّرين، فإقبالك علىٰ من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك منك، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من أهم منه؛ فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك ألَّا يزكىٰ، فلو لم يتزكّ، فلست بمحاسب علىٰ ما عمله من الشر.

فدلّ هذا علىٰ القاعدة المشهورة؛ أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة مصلحة متوهمة»؛ وأنه ينبغي الإقبال علىٰ طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ

ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس]

[١١-١٦] يقول تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: حقًّا إنَّ هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبيِّن الرُّشد من الغي، فإذا تبين ذلك ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: عمل به، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف:٢٩].

ثم ذَكر محلَّ هذه التذكرة وعظمها ورَفع قدرها، فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها؛ بل هي: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وهم: الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين عباده، ﴿كِرَامٍۭ﴾؛ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظٌ من الله لكتابه؛ أن جعل السفراء فيه إلىٰ الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلًا، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

[١٧-٢٣] ولكن مع هذا أبىٰ الإنسان إلا كُفورًا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعد ما تبين، وهو ما هو؟ هو مِن أضعف الأشياء؛ خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشرا سويّا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ أي: يسّر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، وبينه وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ أي: أكرمه بالدَّفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها علىٰ وجه الأرض، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ أي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو -مع هذا- لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه؛ بل لا يزال مقصرا تحت الطلب.

[٢٤-٣٢] ثم أرشده الله إلىٰ النَّظر والتفكُّر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره الله له فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾؛ أي: أنزلنا المطر علىٰ الأرض بكثرة.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ للنَّبات ﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أصنافًا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة،

والأقوات الشهيّة ﴿حَبًّا﴾ وهذا شامل لسائر الحُبوب علىٰ اختلاف أصنافها، ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القَت، ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ وخصَّ هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾؛ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفّة، ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ الفاكهة: ما يتفكَّه فيه الإنسان، من تينٍ وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والأبّ: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النِّعم أوجب له ذلك شُكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال علىٰ طاعته، والتَّصديق لأخباره.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس]

[٣٣-٤٢] أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تُصَخُّ لهولها الأسماعُ، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرىٰ الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال؛ ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، ﴿مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفاتٌ إلىٰ غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلىٰ فريقين: سعداءُ وأشقياء، فأمّا السعداء، فوجوههم يومئذ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾؛ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، مما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وَوُجُوهُ الأشقياء ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا﴾؛ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمّة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجرأوا علىٰ محارمه.

نسأل الله العفو والعافية؛ إنه جواد كريم

والحمد لله ربِّ العالمين.

٨١- تَفسِير سُورَةِ التَّكْوِيرِ

وَهِي مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ① وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ② وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ③ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ④ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ⑤ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ⑥ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ⑦ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ⑧ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ⑨ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ⑩ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ⑪ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ⑫ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ⑬ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ⑭﴾ [التكوير]

[١-١٤] أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة، تميَّز الخلق، وعلم كلٌّ ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خيرٍ وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾؛ أي: تغيرت، وتناثرت من أفلاكها.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾؛ أي: صارت كثيبًا مهيلًا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثا، وأزيلت عن أماكنها، ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾؛ أي: عطّل الناس يومئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يُذهلهم عنها، فنبه بالعِشار؛ وهي: النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم، علىٰ ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾؛ أي: جُمعت ليوم القيامة، ليقتص الله من بعضها لبعض، ويرىٰ العباد كمال عدله، حتىٰ إنه يقتصُّ للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها: كوني ترابًا.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾؛ أي: أوقدت فصارت -علىٰ عِظمها- نارا تتوقّد.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾؛ أي: قُرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجّار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزُّمَر:٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزُّمَر:٧٣]،

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات:٢٢].

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ وهي: التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾، ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها، ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ المشتملة علىٰ ما عمله العاملون من خيرٍ وشر ﴿نُشِرَتۡ﴾ وفرِّقت علىٰ أهلها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾؛ أي: أزيلت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥] ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾؛ أي: أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهابا لم يكن لها قبل ذلك، ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾؛ أي: قُرّبت للمتقين، ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾؛ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط.

﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾؛ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدّمتها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف:٤٩]، وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتدّ من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كلِّ ما يوجب اللوم؛ ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأيُ عين، فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ
رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢
وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ
٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير]

[١٥-١٦] أقسم تعالىٰ ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾ وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلىٰ جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيّارة: الشمس، والقمر، والزهرة، والمشترىٰ، والمريخ، وزحل، وعطارد. فهذه السبعة لها سيران: سير إلىٰ جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

فأقسم الله بها في حالِ خنوسها أي: تأخُّرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أنَّ المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها.

[١٧-١٨] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾؛ أي: أدبر وقيل: أقبل، والنهار ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: بدت علائم الصبح، وانشقّ النور شيئا فشيئا حتىٰ يستكمل وتطلع الشمس.

[١٩] وهذه آيات عظام، أقسم الله عليها لقوة سند القرآن وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم؛ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ وهو: جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء] ووصفه اللهُ بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمُهم رتبة عند ربه.

[٢٠] ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ علىٰ ما أمره الله به. ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مَكِينٖ﴾؛ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلِّهم.

[٢١] ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾؛ أي: جبريل مطاع في الملإِ الأعلىٰ، لديه من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاعٌ رأيه، ﴿أَمِينٖ﴾؛ أي: ذو أمانة وقيام بما أُمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدَّىٰ ما حد له، وهذا كله يدلُّ علىٰ شرف القرآن عند الله تعالىٰ، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا تُرسل الكريم عليها إلا في أهم المهمّات، وأشرف الرسائل.

[٢٢] ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن؛ ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس؛ فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ وهو محمّد ﷺ ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذِّبون برسالته، المتقوِّلون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به؛ بل هو أكمل الناس عقلا وأجزلهم رأيا، وأصدقهم لهجة.

[٢٣] ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: رأىٰ محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق المبين، الذي هو أعلىٰ ما يلوح للبصر.

[٢٤] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾؛ أي: وما هو علىٰ ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه؛ بل هو ﷺ أمينُ أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلَّغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشحَّ بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثىٰ، ولا حضري ولا بدوي،

ولذلك بعثه الله في أمّة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمُت ﷺ حتىٰ كانوا عُلماء ربانيين، وأحبارًا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهىٰ في استخراج الدّقائق والمفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

[٢٥] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ لما ذكر جلالة كتابه وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللَّذين وصل إلىٰ الناس علىٰ أيديهما، وأثنىٰ اللهُ عليهما بما أثنىٰ، دفع عنه كلَّ آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾؛ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

[٢٦] ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؛ أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتىٰ جعلتم الحق الذي هو في أعلىٰ درجات الصِّدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون وأرذل وأسفل الباطل؟ هل هذا إلَّا من انقلاب الحقائق.

[٢٧] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكَّرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزّه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكَّرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكَّرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكَّرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السَّعادتين.

[٢٨] ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي، والهدىٰ من الضلال.

[٢٩] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: فمشيئته نافذةٌ، لا يمكن أن تعارض أو تمانع، وفي هذه الآية وأمثالها رد علىٰ فرقتي القدرية النفاة، والقدرية المجبرة كما تقدم مثالها.

والله أعلم، والحمد لله.

٨٢- تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾ [الانفطار]

[١-٥] أي: إذا انشقّت السماء، وانفطرت، وتناثرت نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحرًا واحدا، وبعثرت القبور بأن أخرج ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء علىٰ الأعمال= فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك يعض الظالم علىٰ يديه إذا رأىٰ ما قدمت يداه وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي.

وهنالك يفوز المتقون المقدّمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار]

[٦-٨] يقول تعالىٰ معاتبا للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرئ علىٰ معاصيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أتهاونًا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

أليس هو ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ في أحسن تقويم؟ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وركّبك تركيبا قويما معتدلا في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله إذْ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

[٩-١٢] وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: مع هذا الوعظ والتَّذكير، لا تزالون مستمرين علىٰ التكذيب بالجزاء.

وأنتم لابد أن تحاسبوا علىٰ ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كرامًا، يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تُكرموهم وتجلُّوهم وتحترموهم.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]

[١٣-١٩] المراد بالأبرار؛ هم: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النَّعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا وفي دار البرزخ و في دار القرار.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الذين قصَّروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم، ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾؛ أي: عذاب أليم، في دار الدنيا ودار البرزخ وفي دار القرار.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويعذبون بها أشد العذاب ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء علىٰ الأعمال.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾؛ أي: بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ في هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ﴾ ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية، فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفَكاك لغيرها، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقّه من ظالمه.

والله أعلم

٨٣- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ (١)

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفِّفين]

[١-٦] ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة عذاب وعقاب، ﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ وفسر الله المطففين بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أخذوا منهم وفاء لهم عما قبلهم يستوفونه كاملا من غير نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقهم، الذي لهم عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخۡسِرُونَ﴾؛ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك؛ فهذا سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم.

وإذا كان هذا وعيدا علىٰ الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهرًا أو سرقة، أولىٰ بهذا الوعيد من المطفّفين.

ودلّت الآية الكريمة، علىٰ أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يُعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات؛ بل يدخل في عموم هذا الحُجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص علىٰ ما له من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبيِّن ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يُعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التَّوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالىٰ المطفِّفين، وتعجَّب من حالهم وإقامتهم علىٰ ما هم عليه، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) في نسخة: مكِّية.

﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالذي جرّأهم علىٰ التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلّا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله، فيحاسبهم علىٰ القليل والكثير؛ لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ [المطففين]

[٧-٩] يقول تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين، والفاسقين ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾؛ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسِّجِّين: المحل الضيق الضنك، و ﴿سِجِّينٞ﴾ ضد ﴿عِلِّيِّينَ﴾ الذي هو محل كتاب الأبرار، كما سيأتي.

وقد قيل: إن ﴿سِجِّينٞ﴾ هو أسفل الأرض السابعة، مأوىٰ الفجار ومستقرّهم في معادهم.

[١٠-١٣] ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ثم بيّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، يوم يدينُ الله الناس فيه بأعمالهم.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ علىٰ محارم الله، متعدٍّ من الحلال إلىٰ الحرام.

﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه علىٰ التكذيب، ويحمله عدوانه علىٰ التكذيب ويوجب له كبره رد الحق، ولهذا ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدّالة علىٰ الحق، وعلىٰ صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها، و﴿قَالَ﴾ هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من ترّهات المتقدمين، وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله تكبّرا وعنادا.

[١٤-١٧] وأمّا من أنصف، وكان مقصودُه الحق المبين؛ فإنه لا يكذب بيوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله حقّ اليقين، وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار، بخلاف من ران علىٰ قلبه كسبُه، وغطته معاصيه، فإنّه محجوب عن الحق، ولهذا جُوزي علىٰ ذلك، بأن

حجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله، ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ ثم يقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللَّوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمِّن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودلَّ مفهوم الآية، علىٰ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وفي الجنة، ويتلذّذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقُربه، كما ذكر الله ذلك في عدّة آيات من القرآن، وتواتر فيه النّقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التَّحذير من الذنوب، فإنها ترين علىٰ القلب وتغطِّيه شيئا فشيئا، حتىٰ ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرىٰ الباطلَ حقًا، والحق باطلا وهذا من أعظم عقوبات الذنوب.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين]

[١٨-٢١] لمَّا ذكر أنَّ كتاب الفجّار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأنّ كتابهم المرقوم ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصدِّيقين والشهداء، وينوِّه الله بذكرهم في الملأ الأعلىٰ، وَ﴿عِلِّيُّونَ﴾ اسم لأعلىٰ الجنة.

[٢٢-٢٨] فلمَّا ذكر كتابهم؛ ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾؛ أي: علىٰ السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ ما أعدَّ الله لهم من النعيم، وينظرون إلىٰ وجه ربهم الكريم، ﴿تَعْرِفُ﴾؛ أيها الناظر ﴿فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: بهاءه ونضارته ورونقه، فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح يكسب الوجه نورًا وحسنًا وبهجة.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ذلك الشراب ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك

الختام الذي ختم به: مسك.

ويحتمل أنَّ المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكَدَر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النّعيم المقيم، الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ أي: فليتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولىٰ ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرىٰ ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرِّجال.

ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفًا، وهي أعلىٰ أشربة الجنة علىٰ الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقرَّبين، الذين هم أعلىٰ الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين؛ أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطفِّفين]

[٢٩-٣٣] لمَّا ذكر تعالىٰ جزاء المُجرمين وجزاء المؤمنين وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أنَّ المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم، و﴿يَضْحَكُونَ﴾ منهم، فَـ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ بهم عند مرورهم عليهم، احتقارا لهم وازدراءً، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف علىٰ بالهم، ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساءً ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾؛ أي: مسرورين مغتبطين، وهذا أشدّ ما يكون من الاغترار؛ أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا، حتىٰ كأنهم قد جاءهم كتابٌ من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدىٰ، وأن المؤمنين ضالُّون، افتراء علىٰ الله، وتجرؤوا علىٰ القول عليه بلا علم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾؛ أي: وما أرسلوا وكلاء علىٰ المؤمنين مُلزمين بحفظ أعمالهم، حتىٰ يحرصوا علىٰ رميهم بالضّلال، وما هذا منهم إلا تعنُّت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان.

[٣٤-٣٦] ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة،

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلَّبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر المزينة، ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ ما أعدَّ الله لهم من النعيم، وينظرون إلىٰ وجه ربهم الكريم.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: هل جُوزوا من جنس عملهم؟

فكما ضحِكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضَّلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب والنكال؛ الذي هو عقوبة الغي والضلال.

نعم، ثُوِّبوا ما كانوا يفعلون، عدلا من الله وحكمة.

والله عليم حكيم.

٨٤- تَفْسِيرُ سُورَةِ الانْشِقَاقِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ① وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ② وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ③ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ④
وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ⑤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَٰقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ⑦ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ⑩ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورًا ⑪ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ⑬
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ⑭ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ⑮﴾ [الانشقاق]

[١-٢] يقول تعالىٰ مبيِّنًا لما يكون في يوم القيامة من تغيُّر الأجرام العظام: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾؛ أي: انفطرت وتمايز بعضُها من بعض، وانتثرت نجومُها، وخسف شمسها وقمرها.

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾؛ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه، أي: حُق لها ذلك؛ فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصىٰ أمره، ولا يخالف حكمه.

[٣-٥] ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾؛ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودكّ ما عليها من بناء ومعلم، فسوّيت، ومدها الله تعالىٰ مد الأديم، حتىٰ صارت واسعة جدًّا، تسع أهل الموقف علىٰ كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتًا.

﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ منهم، فإنّه يُنفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلىٰ وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتىٰ تكون كالإسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون علىٰ ما هم فيه يتنافسون، ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

[٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ أي: إنك ساعٍ إلىٰ الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرِّبٌ إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تُعدم منه جزاء بالفضل أو

العدل إن كنت سعيدًا، وبالعقوبة إن كنت شقيًّا.

[٧-٩] ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم أهل السعادة.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العَرْض اليسير علىٰ الله، فيقرره الله بذنوبه، حتىٰ إذا ظن العبد أنه قد هلك؛ قال الله تعالىٰ له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أسترها لك اليوم».

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

[١٠-١٥] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؛ أي: بشماله من وراء ظهره.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدَّمها ولم يتب منها، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾؛ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلَّب علىٰ عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ لا يخطُر البعث علىٰ باله، وقد أساء، ولا يظن أنه راجع إلىٰ ربه وموقوف بين يديه.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ فلا يُحسن أن يتركه سدىٰ، لا يؤمر ولا يُنهىٰ، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق]

[١٦-١٩] أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشَّفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح اللَّيل.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؛ أي: احتوىٰ عليه من حيوانات وغيرها، ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾؛ أي: امتلأ نورًا بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمُقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: أيها الناس ﴿طَبَقًا﴾ بعد ﴿طَبَقٍ﴾؛ أي: أطوارا متعددة وأحوالًا متباينة، من النّطفة إلىٰ العلقة، إلىٰ المضغة، إلىٰ نفخ الروح، ثم يكون وليدًا وطفلا ومميزًا، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يُبعث ويجازىٰ بأعماله؛ فهذه الطبقات المختلفة الجارية علىٰ العبد، دالة علىٰ أنَّ الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأنَّ العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم.

[٢٠-٢٤] ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩﴾؛ أي: لا

يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن، فإنّ المكذب بالحق عنادًا لا حيلة فيه، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾؛ أي: بما يعملونه وينوونه سرًّا؛ فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وسُميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًّا.

[٢٥] فهذه حال أكثر الناس؛ التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به.

ومن الناس فريقٌ هداهم الله، فآمنوا بالله، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فـ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهؤلاء ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾ أي: غير مقطوع؛ بل هو أجرٌ دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والحمد لله

٨٥- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبُرُوجِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج]

[١-٣] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾؛ أي: ذات المنازل المشتملة علىٰ منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، علىٰ أكمل ترتيب ونظام دالٍّ علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، ورحمته، وسِعة علمه، وحكمته.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغيّر، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ وشمل هذا كلَّ من اتّصف بهذا الوصف؛ أي: مبصِر ومبصَر، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة.

وقيل: إنَّ المقسم عليه قوله:

[٤-٩] ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم علىٰ الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشقَّ الكافرون أخدودًا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر علىٰ الإيمان قذفوه في النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعَّدهم فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ ثم فسّر الأخدود بقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ وهذا من أعظم ما يكون من التجبّر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضُورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحالُ أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا حالة يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ أي: الذي له العزة التي قهر بها كلَّ شيء، وهو حميدٌ في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بما يشاء، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا؛ أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنّهم جميعهم مماليك لله، ليس لأحد علىٰ أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيطٌ بأعمالهم، مجازيهم عليها؟ كلّا إن الكافر في غرور، والجاهل في عمًىٰ وضلال عن سواء السبيل.

[١٠] ثم أوعدهم ووعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: انظروا إلىٰ هذا الكرم والجُود، هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلىٰ التوبة.

[١١] ولما ذكر عقوبة الظالمين؛ ذكر ثواب المؤمنين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي حصل لهم الفوز برضا الله ودار كرامته.

[١٢] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو للظالمين بالمرصاد كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [هود].

[١٣] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا يشاركه في ذلك مشارك.

[١٤] ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ الذي يحبّه أحبابه محبةً لا يشبهها شيء؛ فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبَّته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيءٌ من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبّته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدّم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم تكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا علىٰ أهلها، وهو تعالىٰ الودود، الواد لأحبابه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سرٌّ لطيف، حيث قرن ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ بالغفور، ليدلّ ذلك علىٰ أن أهل الذنوب إذا تابوا إلىٰ الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو علىٰ تلك الحال، إذا راحلته علىٰ رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه.

[١٥] ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السَّمٰوات والأرض والكرسي؛ فهي بالنسبة إلىٰ العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخصّ الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقُرب منه تعالىٰ، وهذا علىٰ قراءة الجر، يكون ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ نعتا للعرش، وأما علىٰ قراءة الرفع، فإن المجيد نعتًا لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

[١٦] ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ أي: مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئًا؛ فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.

[١٧-١٨] ثم ذكر من أفعاله الدالة علىٰ صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذَّبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

[١٩] ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾؛ أي: لا يزالون مستمرِّين علىٰ التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات.

[٢٠] ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾؛ أي: قد أحاط بهم علمًا وقدرةً، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر] ففيه الوعيد الشّديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره.

[٢١-٢٢] ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ من التغيير والزيادة والنَّقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللَّوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدلُّ علىٰ جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالىٰ، والله أعلم.

تم تفسيرها

٨٦- تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّارِقِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق]

[١-٤] يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ثم فسر الطارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السَّمٰوات فينفذ حتىٰ يرىٰ في الأرض، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السَّمٰوات السبع وينفذها فيُرىٰ منها. وسمي طارقًا، لأنه يطرق ليلا.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستُجازىٰ بعملها المحفوظ عليها.

[٥-٧] ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾؛ أي: فليتدبّر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق ﴿مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ وهو: المنيُّ الذي ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يُحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها.

ويحتمل أنّ المراد المنيّ الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صُلبه وترائبه، ولعل هذا أولىٰ، فإنّه إنما وصف به الماء الدافق الذي يحس به ويشاهد دفقه، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تُستعمل للرجل، فإنَّ الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثىٰ، فلو أريدت الأنثىٰ لقيل: (من بين الصلب والثديين) ونحو ذلك، والله أعلم.

[٨-١٠] فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر علىٰ رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث، والنشور والجزاء، وقد قيل: إنَّ معناه، أن الله علىٰ رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المعنىٰ صحيحًا - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر علىٰ صفحات الوجوه كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عيانًا للناس، وأما يوم القيامة فيظهر بر الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية.

وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾ أي: من نفسه يدفع بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ من خارجٍ ينتصر به، فهذا القسم علىٰ العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

[١١-١٤] ثم أقسم قسمًا ثانيًا علىٰ صحة القرآن، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾؛ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾؛ أي: حقٌّ وصدق بين واضح.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾؛ أي: جدٌّ ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

[١٥-١٧] ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: المكذِّبين للرسول ﷺ، وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإنَّ الآدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾؛ أي: قليلا فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

٨٧- تَفْسِيرُ سُورَة ﴿سَبِّح﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤
فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧
وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١
ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ
فَصَلَّىٰ ١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ
إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى]

[١-٣] يأمر تعالىٰ بتسبيحه المتضمِّن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحًا، يليق بعظمة الله تعالىٰ؛ بأن تُذكر أسماؤه الحسنىٰ العالية علىٰ كلِّ اسم بمعناها العظيم الجليل، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسوّاها؛ أي: أتقن وأحسن خلقها، ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَىٰ﴾ إلىٰ ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدىٰ كل مخلوق لمصلحته.

[٤-٥] وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾؛ أي: أنزل من السماء ماء، أنبت به أصناف النبات والعشب الكثير، فرتع فيه الناس والبهائم وجميع الحيوانات، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب؛ ألوىٰ نباته، وصوح عشبه، ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾؛ أي: أسود؛ أي: جعله هشيمًا رميمًا.

[٦-٧] ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتن الله بأصلها ومادتها؛ وهو القرآن، فقال: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؛ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونُوعِيه قلبك، فلا تنسىٰ منه شيئًا، وهذه بشارة من الله

كبيرة لعبده ورسوله محمد ﷺ؛ أنّ الله سيعلِّمه علمًا لا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة وحكمة بالغة، ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده؛ أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد.

[٨] ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ وهذه أيضًا بشارة أخرىٰ، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرىٰ في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسيرا.

[٩-١٣] ﴿فَذَكِّرۡ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؛ أي: ما دامت الذكرىٰ مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرىٰ جميع المقصود أو بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرىٰ، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن مأمورًا بها؛ بل منهيًا عنها، فالذكرىٰ ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ اللهَ، فإن خشية الله تعالىٰ، والعلم بمجازاته علىٰ الأعمال توجب للعبد الانكفاف عما يكرهه الله والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين؛ فذكرهم بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ وهي النار الموقدة التي تطلع علىٰ الأفئدة.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾؛ أي: يعذب عذابًا أليمًا، من غير راحة ولا استراحة، حتىٰ إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦].

[١٤-١٥] ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾؛ أي: اتَّصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يُرضي الله، خصوصًا الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنىٰ الآية الكريمة.

وأما من فسر قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يعني: أخرج زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنىٰ وحده.

[١٦-١٧] ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: تقدمونها علىٰ الآخرة، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل علىٰ الآخرة.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقىٰ لكونها دار خلد وبقاء

وصفاء، والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ علىٰ الأجود، ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحبّ الدنيا وإيثارها علىٰ الآخرة رأس كل خطيئة.

[١٨-١٩] ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللذين هما أشرف المرسلين، بعد محمد صلىٰ الله عليه وعليهم أجمعين.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلىٰ مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تمت، ولله الحمد

٨٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦﴾ [الغاشية]

[١] يذكر تعالىٰ أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشىٰ الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلىٰ فريقين: فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين:

[٢-٧] فقال في وصف أهل النار: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ من الذُّل، والفضيحة والخزي.

﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾؛ أي: تاعبة في العذاب، تجر علىٰ وجوهها، ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم].

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل؛ ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان؛ صار يوم القيامة هباء منثورا، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنىٰ؛ فلا يدل عليه سياق الكلام؛ بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان ذكر أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلىٰ أهل النار؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرُّض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾؛ أي: شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾؛ أي: شديدة الحرارة ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ [الكهف:٢٩] فهذا شرابهم.

وأما طعامهم فـ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ وذلك لأن المقصود من الطعام أحد أمرين:

إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه.

وإما أن يسمن بدنه من الهزال.

وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين؛ بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل الله العافية.

[٨-١٦] وأما أهل الخير، فوجوههم يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾؛ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسرّوا غاية السرور.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلىٰ عباد الله، ﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلّها ومنازلها، فمحلها في أعلىٰ علّيّين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها علىٰ ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝﴾ [الحاقة] أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المُثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها علىٰ أي: حالٍ كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿لَٰغِيَةً﴾؛ أي: كلمة لغو وباطل، فضلا عن الكلام المحرم؛ بل كلامهم كلام حسن نافع مشتمل علىٰ ذكر الله تعالىٰ، وذكر نعمه المتواترة عليهم، وعلىٰ الآداب الحسنة بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنىٰ أرادوا.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ و«السرر» جمع «سرير» وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾؛ أي: أوان ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وُضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾؛ أي: وسائد من الحرير والاستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفّت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أُريحوا عن أن يضعوها، ويصفّوها بأنفسهم.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ والزرابي هي: البسط الحسان، مبثوثة؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩
وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ
٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية]

[١٧-٢٠] يقول تعالىٰ حثًّا للّذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة علىٰ توحيده: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؛ أي: ألا ينظرون إلىٰ خلقها البديع، وكيف سخّرها الله للعباد، وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها الاستقرار للأرض وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع الجليلة ما أودع.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؛ أي: مُدّت مدًّا واسعًا، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر العباد علىٰ ظهرها، ويتمكّنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك طرقها الموصلة إلىٰ أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل علىٰ ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة؛ كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس علىٰ أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقرّبة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًّا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو كبير جدا واسع، فيكون كرويًّا مسطحًا، ولا يتنافىٰ الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

[٢١-٢٢] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾؛ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلىٰ الله وتذكيرهم، ولم تبعث عليهم مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق].

[٢٣-٢٤] وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾؛ أي: لكن من تولىٰ عن الطاعة وكفر بالله ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾؛ أي: الشديد الدائم.

[٢٥-٢٦] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾؛ أي: رجوع الخلائق وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ علىٰ ما عملوا من خير وشر.

والحمد لله رب العالمين

٨٩- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر]

[١-٥] الظاهر أن المقسم عليه هو المقسم به، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًا، وهو كذلك في هذا الموضع.

فأقسم تعالىٰ بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدِّمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار، من الآيات الدَّالة علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، وأنّه هو المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلّا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي علىٰ الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو عشر ذي الحجة، فإنّها ليال مشتملة علىٰ أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع بغيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرةً يحزن لها الشيطان، فإنه ما رئي الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة، لما يرىٰ من تنزّل الأملاك والرحمة من الله علىٰ عباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة أن يقسم الله بها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾؛ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامَه علىٰ العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون، رحمة منه تعالىٰ وحكمة.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر]

[٦-١٤] يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، عاد وهي: ﴿إِرَمَ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾؛ أي: القوة الشديدة، والعتو والتجبّر.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ أي: في جميع البلدان في القوة والشدة؛ كما قال لهم نبيهم هود ﷺ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ [الأعراف].

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾؛ أي: وادي القرىٰ، نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد وما يراد إمساكه بها، ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ هذا الوصف عائد إلىٰ عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكُفر وشُعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرُّسل وصدِّ الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتوّ ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبًا وسوط عذاب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ لمن يعصيه يمهله قليلا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر]

[١٥-٢٠] يخبر تعالىٰ عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أنَّ إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل علىٰ كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾؛ أي: ضيّقه، فصار يقدر قوته لا يفضل عنه، أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحسبان: فقال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس كل من نعّمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدّرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنىٰ والفقر، والسعة والضيق= ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد؛ ليرىٰ من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه علىٰ ذلك الثواب الجزيل، ممَّن ليس كذلك

فينقله إلىٰ العذاب الوبيل.

وأيضًا، فإنَّ وقوف همّة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامَهُم الله علىٰ عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلىٰ جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه؛ بل تهينونه، وهذا يدل علىٰ عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾؛ أي: لا يحض بعضكم بعضًا علىٰ إطعام المحاويج من الفقراء والمساكين، وذلك لأجل الشُّح علىٰ الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكِّنة من القلوب، ولهذا قال: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾؛ أي: المال المخلّف ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾؛ أي: ذريعًا، لا تبقون علىٰ شيء منه.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾؛ أي: شديدًا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلىٰ]، ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة].

﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر]

[٢١-٢٤] ﴿كَلَّآۖ﴾؛ أي: ليس كل ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللَّذات، بباق لكم؛ بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تُدكُّ فيه الأرض والجبال وما عليها حتىٰ تجعل قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمتًا.

ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام، أهل السَّمٰوات كلهم، ﴿صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ أي: صفًّا بعد صف، كل سماءٍ يجيء ملائكتها صفا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوعٍ وذل للملك الجبار.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ تقودُها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور فـ ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ما قدَّمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ﴾ متحسِّرًا علىٰ ما فرط في جنب الله: ﴿يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ الباقية الدائمة، عملا صالحًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان].

وفي هذا دليل علىٰ أن الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها [1]، وفي تتميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء.

[٢٥-٢٦] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فإنهم يُقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون علىٰ وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين.

[٢٧-٣٠] وأمَّا من آمن بالله واطمأن به وصدّق رسله، فيقال له: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلىٰ ذكر الله، الساكنة إلىٰ حبه، التي قرت عينها بالله ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدىٰ عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾؛ أي: راضية عن الله، وعما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ وهذا تخاطَب به الروح يوم القيامة، وتخاطب وقت السياق والموت.

والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) في نسخة: التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها.

٩٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤
أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل
لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢
فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾[البلد]

[١-٣] يقسم تعالىٰ ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ الأمين، وهو مكة المكرمة، أفضل البلدان علىٰ الإطلاق، خصوصًا وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾؛ أي: آدم وذرّيته.

[٤-٧] والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنّه ينبغي له أن يسعىٰ في عمل يريحه من هذه الشّدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشّديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنىٰ: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خِلقة، يقدر علىٰ التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، فإنه لم يشكر الله علىٰ هذه النِّعمة العظيمة؛ بل بطر بالعافية وتجبر علىٰ خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ ويطغىٰ ويفتخر بما أنفق من الأموال علىٰ شهوات نفسه؛ فـ ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾؛ أي: كثيرًا، بعضُه فوق بعض.

وسمَّىٰ الله تعالىٰ الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود

عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعِّدًا هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ أي: أيظن في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه علىٰ الصَّغير والكبير؟

بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكّل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

[٨-١٠] ثم قرّره بنعمه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ للجمال والبصر والنُّطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعمُ الدنيا، ثم قال في نعم الدِّين: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: طريقي الخير والشر، بينّا له الهدىٰ من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكره علىٰ نعمه، وألَّا يستعين بها علىٰ معاصيه.

[١١] ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾؛ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته، وهذه العقبة شديدة عليه.

[١٢-١٦] ثم فسر هذه العقبة بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: فكها من الرق بعتقها أو مساعدتها علىٰ أداء كتابتها، ومن باب أولىٰ فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: مجاعة شديدة؛ بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: جامعًا بين كونه يتيمًا، وفقيرًا ذا قرابة.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ أي: قد لزَق بالتراب من الحاجة والضرورة.

[١٧] ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وعملوا الصالحات؛ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هذا كل قول وفعل واجب أو مستحب ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ علىٰ طاعة الله وعن معصيته، وعلىٰ أقداره المؤلمة بأن يحثّ بعضهم بعضًا علىٰ الانقياد لذلك، والإتيان به كاملا منشرحًا به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم علىٰ المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحبّ لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

[١٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفّقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لأنهم أدُّوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

[١٩-٢٠] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدِّقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحًا، ولا رحموا عباد الله، أولئك ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾؛ أي: مغلقة، في عمد ممددة، قد مُدّت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابها، حتىٰ يكونوا في ضيق وهمٍّ وشدة.

والحمد لله.

٩١- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ① وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ② وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ③ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ④ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ⑤ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ⑪ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ⑮﴾[الشمس]

[١-٦] أقسم تعالىٰ بهذه الآيات العظيمة، علىٰ النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: نورها، ونفعها الصادر منها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ أي: تبعها في المنازل والنور.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ أي: جلَّى ما علىٰ وجه الأرض وأوضحه.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾؛ أي: يغشىٰ وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلمًا.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، علىٰ هذا العالم، بانتظام وإتقانٍ، وقيام لمصالح العباد، أكبر دليل علىٰ أن الله بكل شيءٍ عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبودٍ سواه فباطل.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يحتمل أنَّ «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تبارك وتعالىٰ، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان، ونحو هذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ أي: مدّها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع أوجه الانتفاع.

[٧-٨] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ يحتمل أن المراد ونفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا

العموم، ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وعلىٰ كلٍّ، فالنفس آية كبيرة من آياته التي يحقّ بالإقسام بها فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقُّل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النَّفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها علىٰ هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة.

[٩-١٠] وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ أي: طهَّر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: أخفىٰ نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والذنوب، وترك ما يكمّلها وينمّيها، واستعمال ما يشينها ويدسيها.

[١١-١٥] ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾؛ أي: بسبب طُغيانها وترفعها عن الحق، وعتوّها علىٰ رسلوهم.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾؛ أي: أشقىٰ القبيلة، وهو «قُدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا علىٰ ذلك، وأمروه فاتمر لهم.

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالحُ ﷺ محذرًا: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذَّبوا نبيهم صالحًا.

﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ أي: دمّر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم، والرَّجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين علىٰ ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبًا.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عليهم أي: سوىٰ بينهم بالعقوبة.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾؛ أي: تبعتها. وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت ولله الحمد

٩٢- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا
مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ
بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ
لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦
وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ
ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل]

[١-٢] هذا قسمٌ من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد علىٰ تفاوت أحوالهم؛ فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ أي: يعم الخلق بظلامه، فيسكن كلٌّ إلىٰ مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للخلق، فاستضاؤوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

[٣] ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ إن كانت «ما» موصولة، كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة، بكونه خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية؛ كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثىٰ، وكمال حكمته في ذلك أن خلَق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكرًا وأنثىٰ، ليبقىٰ النوع ولا يضمحل، وقاد كلًّا منهما إلىٰ الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسبًا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

[٤] وقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلىٰ الباقي؟ فيبقىٰ العمل له ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالىٰ، بهذا الوصف.

[٥-٧] ولهذا فصَّل الله تعالىٰ العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾؛ أي ما أمر به من العبادات المالية، كالزَّكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصَّلاة، والصوم وغيرهما، والمركَّبة من ذلك، كالحج والعمرة ونحوهما، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، علىٰ اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: صدق بـ«لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ أي: نيسّر عليه أمره، ونجعله مسهلا عليه كل خير، ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتىٰ بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

[٨-١٠] ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلىٰ ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجّه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: بما أوجب الله علىٰ العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾؛ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسّرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

[١١] ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ الذي أطغاه واستغنىٰ به، وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب؛ فإنه يكون وبالًا عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

[١٢] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾؛ أي: إن الهدىٰ المستقيم طريقه، يوصل إلىٰ الله، ويدني من رضاه، وأما الضلال، فطرقه مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

[١٣] ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ مِلكًا وتصرفًا، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطَّلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

[١٤-١٦] ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾؛ أي: تستعر وتتوقد.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ بالخبر ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر.

[١٧-٢١] ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها

من الذنوب والأدناس، قاصدًا به وجه الله تعالىٰ، فدل هذا علىٰ أنه إذا تضمَّن الإنفاق المستحب ترك واجبٍ؛ كدين ونفقة ونحوهما= فإنه غير مشروع؛ بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكىٰ بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾؛ أي: ليس لأحد من الخلق علىٰ هذا الأتقىٰ نعمة تجزىٰ إلا وقد كافأه عليها، وربما بقي له الفضل والمنة علىٰ الناس، فتمحض عبدًا لله؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت عليه نعمة الناس لم يجزها ويكافئها؛ فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بل قد قيل: إنها قد نزلت بسببه، فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ، حتىٰ ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلىٰ دين الإسلام، وتعليم الهدىٰ ودين الحق، فإن لله ورسوله المنّة علىٰ كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولةٌ لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تُجزىٰ، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالىٰ.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ هذا الأتقىٰ بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله ربِّ العالمين.

٩٣- تَفْسِير سُورَة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾

وَهِي مَكِّيَّةُ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحىٰ]

[١-٣] أقسم تعالىٰ بالنهار إذا انتشر ضياؤه: بالضحىٰ، وبالليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ وادلهّمت ظلمته علىٰ اعتناء الله برسوله ﷺ؛ فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنىٰ بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك؛ بل لم يزل يربِّيك أكمل تربيةٍ، ويعليك درجة بعد درجة، ﴿وَمَا﴾ قلاك الله؛ أي: ما أبغضك منذ أحبك، [**فإنَّ نفي الضِّد دليلٌ علىٰ ثبوت ضده، والنَّفي المحض لا يكون مدحًا، إلّا إذا تضمن ثبوت كمالٍ**]، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حالٍ وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درجات الكمال، ودوام اعتناء الله به.

[٤] وأمّا حاله المستقبلة، فقال: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: كلُّ حالة متأخرة من أحوالك، فإنّ لها الفضل علىٰ الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعَد في درجات المعالي ويمكّن له الله دينه، وينصره علىٰ أعدائه، ويسدِّده في أحواله، حتىٰ مات، وقد وصل إلىٰ حال ما وصل إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنِّعم، وقرة العين، وسرور القلب.

[٥] ثم بعد هذا، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾، وهذا أمرٌ لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشَّاملة.

[٦-٨] ثم امتنَّ عليه بما يعلمه من أحواله الخاصّة؛ فقال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾؛ أي: وجدك لا

أم لك، ولا أب؛ بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكفَّله جدَّه عبدُ المطلب، ثم لما مات جدُّه كفَّله الله عمَّه أبا طالب، حتىٰ أيَّده الله بنصره وبالمؤمنين، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾؛ أي: وجدك لا تدري ما الكتابُ ولا الإيمان، فعلَّمك ما لم تكن تعلم، ووفَّقك لأحسن الأعمال والأخلاق، ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾؛ أي: فقيرًا، **فأغناك الله** بما فتح عليك من البلدان، التي جُبِيت لك أموالها وخراجها، فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كلَّ نقصٍ، والذي أوصلك إلىٰ الغنىٰ، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[٩-١١] ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾؛ أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره؛ بل أكرِمْه، وأعْطِهِ ما تيسَّر، واصنع به كما تحبُّ أن يُصنع بولدك من بعدك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾؛ أي: لا يصدر منك كلام إلىٰ السَّائل يقتضي رده عن مطلوبه، بنهْرٍ وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رُدّه بمعروف وإحسان، وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلِّم مأمورًا بحسن الخُلُق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنُّن عليه، فإنَّ في ذلك معونة له علىٰ مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعىٰ في نفع العباد والبلاد، ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ وهذا يشمل النِّعمَ الدينية والدنيوية؛ أي: أَثْنِ علىٰ الله بها، وخصها بالذكر إن كان هناك مصلحة، وإلَّا؛ فحدث بنعم الله علىٰ الإطلاق، فإنَّ التحدثَ بنعمة الله، داعٍ لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلىٰ من أنعم بها؛ فإن القلوب مجبولة علىٰ محبة المحسن.

٩٤- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح]

[١-٤] يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ رسوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ أي: نوسِّعه لشرائع الدِّين والدعوة إلىٰ الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال علىٰ الآخرة، وتسهيل الخيرات فلم يكُن ضيقًا حرجًا، لا يكاد ينقادُ لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ أي: ذنبك، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ﴾؛ أي: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾؛ كما قال تعالىٰ: **﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**[الفتح:٢]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحدٌ من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذُكِرَ معه رسولُه ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخُطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلىٰ اللهُ بها ذِكْر رسوله محمد ﷺ، وله في قلوب أمَّته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحدٍ غيره بعد الله تعالىٰ، فجزاه الله عن أمَّته أفضل ما جزىٰ نبيًّا عن أمته.

[٥-٦] وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وُجِدَ عسرٌ وصعوبةٌ فإنَّ اليسر يقارنه ويصاحبه، حتىٰ لو دخل العُسر جحر ضب لدخل عليه اليُسر فأخرجه كما قال تعالىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وكما قال النبيُّ ﷺ: **«وإنَّ الفرج مع الكرْب، وإن مع العسر يسرًا»**.

وتعريف (العسر) في الآيتين، يدل علىٰ أنه واحدٌ، وتنكير (اليسر) يدل علىٰ تكراره، فلن يغلب عسرٌ يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام الدالّ علىٰ الاستغراق والعموم يدل علىٰ أنّ كل عسر -وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ- فإنه في آخره التَّيسير ملازم له.

[٧ - ٨] ثم أمر الله رسوله أصلًا، والمؤمنين تبعًا= بشكره والقيام بواجب نعمه؛ فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾؛ أي: إذا تفرّغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يَعُوقُه، فاجتهد في العبادة والدُّعاء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَٱرْغَب﴾؛ أي: أعظم الرّغبة في إجابة دعائك وقبول دعواتك، ولا تكن ممّن إذا فرغوا؛ لعِبُوا وأعرضوا عن ربِّهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إنَّ معنىٰ هذا: فإذا فرغت من الصَّلاة وأكملتها، فانصَب في الدّعاء، وإلىٰ ربِّك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال هذا القول، علىٰ مشروعيّة الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم.

وبذلك تمَّت، والحمد لله.

٩٥- تفسير سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾

وهي مكيّة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين]

[١ – ٣] ﴿ٱلتِّينِ﴾ هو التِّين المعروف، وكذلك ﴿ٱلزَّيۡتُونِ﴾ أقسم بهاتين الشَّجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشَّام، محل نبوة عيسىٰ ابن مريم عليه السلام، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛ أي: طور سَيْناء، محل نبوة موسىٰ عليه السلام، ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ وهو: مكّة المكرمة؛ محلّ نبوة محمد ﷺ، فأقسم تعالىٰ بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها، وابتعث منها أفضل الأنْبِيَاء وأشرفهم.

[٤] والمقسَم عليه قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ أي: تامَّ الخلق، متناسبِ الأعضاء، منتصبِ القامة، لم يفقد ممَّا يحتاج إليه ظاهرًا وباطنًا شيئًا.

[٥ – ٦] ومع هذه النِّعم العظيمةِ، الَّتي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخَلْق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللَّهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفساف الأخلاق، فردَّهم الله في ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ أي: أسفل النّار، موضع العصاة المتمرِّدين علىٰ ربهم، إلا مَن منَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فَلَهُمۡ﴾ بذلك المنازل العالية، و﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾؛ أي: غير مقطوع؛ بل لذّات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبدٍ لا يزول، ونعيم لا يحول، أكُلُها دائمٌ وظلُّها.

[٧ – ٨] ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: أيُّ شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء علىٰ الأعمال، وقد رأيتَ من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين، ومن نعمه ما يُوجب عليك ألا تكفر بشيء منها.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدًىٰ لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النِّعم والخير والبر ما لا يحصونَه، وربَّاهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلىٰ دارٍ هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يَقصدون، ونحوها يَؤمُّون.

تمَّت والحمد لله

٩٦- تَفْسِير سُورَة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾

وَهِي مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ
بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ
١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥
نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ
وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق]

[١] هذه السّورة أول السور القرآنية نزولًا علىٰ رسول الله ﷺ؛ فإنّها نزلت عليه في مبادئ النبوة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع، وقال: «ما أنا بقارئ»، فلم يزل به حتّىٰ قرأ؛ فأنزل الله عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ عمومَ الخلقِ.

[٢] ثم خصّ الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾، فالذي خلق الإنسان واعتنىٰ بتدبيره لا بد أن يدبِّره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب، ولهذا أتىٰ بعد الأمر بالقراءة بخلقه للإنسان.

[٣-٥] ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾؛ أي: كثير الصِّفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علَّم أنْوَاع العلوم، و﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، فإنه تعالىٰ أخرجه من بطن أمِّه لا يعلم شيئًا، وَجَعَلَ له السَّمع والبصر والفؤاد، ويسَّر له أسباب العلم، فعلمه القرآن، وعلَّمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تُحفظ العلوم، وتُضبط الحقوق، وتكون رُسلًا للناس تنوب مناب خطابهم، فللّه الحمد والمنة، الذي أنعم علىٰ عباده بهذه النِّعم التي لا يقدُرون لها علىٰ جزاءٍ

ولا شكور، ثم منَّ عليهم بالغِنىٰ وسعة الرزق.

[٦ – ٨] ولكن الإنسان -لجهله وظلمه- إذا رأىٰ نفسَه غنيًا، طغىٰ وبغىٰ وتجبّر عن الهدىٰ، ونسي أن إلىٰ ربه ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، ولم يَخَفِ الجزاء؛ بل ربّما وصلت به الحال أنه يترك الهدىٰ بنفسه، ويدعو غيره إلىٰ تركه، فينهىٰ عن الصّلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

[٩ – ١٤] يقول الله لهذا المتمرِّد العاتي: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾؛ أيُّها الناهي للعبد إذا صلىٰ ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ العلم بالحق والعمل به، ﴿أَوۡ أَمَرَ﴾ غيره ﴿بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾، فهل يحسن أن يُنهىٰ من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإنَّ النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه علىٰ غير الهدىٰ، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوىٰ، ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ﴾ النّاهي بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشىٰ عقابه؟ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يعمل ويفعل؟

[١٥ – ١٦] ثمّ توعده إن استمر علىٰ حاله، فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾ عمّا يقول ويفعل ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ أي: لنأخذنَّ بناصيته، أخذًا عنيفًا، وهي حقيقةٌ بذلك، فإنها ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾؛ أي: كاذبةٌ في قولها، خاطئةٌ في فِعلها.

[١٧ – ١٨] ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾ هذا الذي حقّ عليه العذاب ﴿نَادِيَهُۥ﴾؛ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليُعينوه علىٰ ما نزله به، ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ أي: خزنةَ جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوىٰ وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما تُوعِّد به من العقوبة.

[١٩] وأمّا حالة المنهي: فأمره الله ألا يصغي إلىٰ هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه؛ فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾؛ أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار، ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ لربِّك ﴿وَٱقۡتَرِب۩﴾ منه في السُّجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلّها تُدني من رضاه وتقرِّب منه.

وهذا عَامٌّ لكل ناهٍ عن الخير ومنهيٍّ عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهلٍ حين نهىٰ رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعذَّبه وآذاه.

تمت، والحمد لله رب العالمين.

٩٧- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدَرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر]

[١] يقول تعالىٰ مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان:٣]، وذلك أنَّ الله تعالىٰ، ابتدأ بإنزال القرآن في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمةً عامة، لا يقدُر العباد لها شكرًا، وسُمِّيت ليلة القدر؛ لِعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدَّر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة.

[٢] ثم فخّم شأنها وعظم مقدارها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ أي: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم.

[٣] ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ أي: تُعادِل من فضلها ألفَ شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خيرٌ من العمل في ألف شهر خاليةٍ منها، وهذا ممَّا تتحيَّر فيه الألباب، وتندهش له العقول، حيث منَّ تبارك وتعالىٰ علىٰ هذه الأمّة الضعيفة القوة والقوىٰ، بليلةٍ يكون العمل فيها يقابل ويزيد علىٰ ألف شهر، عُمْر رجلٍ معمَّر عمرًا طويلًا، نيّفًا وثمانين سنة.

[٤] ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾؛ أي: يكثر نزولهم فيها ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾.

[٥] ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾؛ أي: سالمةٌ من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ أي: مبتداها من غروب الشَّمس ومنتهاها طلوع الفجر.

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصًا في أوتاره، وهي باقيةٌ في كلِّ سنة إلىٰ قيام الساعة، ولهذا كان النبي ﷺ، يعتكف، ويكثر من التعبّد في العشر الأواخر من

رمضان، رجاء ليلة القدر.

والله أعلم

٩٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ
ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ
ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ
عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة]

[١] يقول تعالىٰ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: من اليهود والنَّصارىٰ ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيِّهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور الأوقات إلّا كُفرًا ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ الواضحة والبرهان السّاطع.

[٢-٣] ثم فسّر تلك البينة فقال: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أرسله الله، يدعو الناس إلىٰ الحق، وأنزل عليه كتابًا يتلوه، ليعلِّم النّاس الحكمة ويزكيهم ويُخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ولهذا قال: ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾؛ أي: محفوظةً من قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهَّرون، لأنها أعلىٰ ما يكون من الكلام؛ ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الصُّحف ﴿كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾؛ أي: أخبارٌ صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البيِّنة فحينئذٍ يتبيَّن طالب الحق ممن ليس له مقصدٌ في طلبه، فيهلَك من هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

[٤] وإذا لم يؤمن أهلُ الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدْعٍ من ضلالهم وعنادهم، فإنّهم ما تفرَّقوا واختلفوا وصاروا أحزابًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتِّفاق، ولكنَّهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدىٰ إلَّا ضلالًا ولا البصيرةُ إلَّا عمًىٰ.

[٥] مع أنّ الكتب كلها جاءت بأصلٍ واحد ودين واحد، فما ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ في سائر الشَّرائع إلَّا أن يعبدوا ﴿ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجهَ الله وطلب الزُّلفىٰ لديه، ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ أي: مُعرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدِين التوحيد، وخصَّ الصلاة والزكاة بالذِّكر مع أنهما داخلان فِـي قَوْلِه: ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللَّتين من قام بهما قام بجميعِ شرائع الدين، ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: التَّوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾؛ أي: الدِّين المستقيم، الموصل إلىٰ جنات النعيم، وما سواه فطرقٌ موصلة إلىٰ الجحيم.

[٦] ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابُها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ لا يُفتَّر عنهم العذاب، وهم فيها مُبلسون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه وخسروا الدُّنيا والآخرة.

[٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾؛ لأنهم عبدوا الله وعرفوه وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

[٨] ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾؛ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ فرضِيَ عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه وقام بما أوجب عليه.

تمَّت والحمد لله

٩٩- تفسير سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾

وهي مدنية

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]

[١-٢] يُخبر تعالىٰ عما يكون يوم القيامة، وأنّ الأرض تتزلزل وترجف وترتج حتىٰ يسقط ما عليها من بناءٍ ومَعْلَم، فتندكُّ جبالها وتسوَّىٰ تلالُها وتكون قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمتًا، ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾؛ أي: ما في بطنها، من الأموات والكُنوز.

[٣] ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إذا رأىٰ ما عراها من الأمر العظيم مستعظِمًا لذلك: ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: أيُّ شيء عُرض لها؟!

[٤-٥] ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخۡبَارَهَا﴾؛ أي: تشهد علىٰ العاملين بما عملوا علىٰ ظهرها من خيرٍ وشر؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون علىٰ العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾؛ أي: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصي لأمره.

[٦] ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي اللهُ بينهم ﴿أَشۡتَاتٗا﴾؛ أي: فرقًا متفاوتين؛ ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أي: ليُريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويُريهم جزاءه موفَّرًا.

[٧-٨] ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾، وهذا شاملٌ عامٌّ للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأىٰ مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجُوزِيَ عليها فما فوق ذلك من باب أولىٰ وأحرىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾[آل عمران:٣٠]، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾[الكهف:٤٩]، وهذا

فيه الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا.

١٠٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ① فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ② فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ③ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ④ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ⑤ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ⑥ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ⑦ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ⑧ ۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ⑩ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ⑪﴾ [العاديات]

[١] أقسم الله تبارك وتعالىٰ بالخيل، لِما فيها من آياته الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالىٰ بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرُها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾؛ أي: العاديات عدوًا بليغًا قويًّا، يصدر عنه الضَّبح، وهو صوت نَفَسِها في صدرها، عند اشتداد عدْوِها.

[٢] ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ﴾ بحوافرهنّ ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قَدۡحٗا﴾؛ أي: تنقدح النار من صلابة حوافرهنّ وقوّتهن إذا عدون.

[٣] ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ﴾ علىٰ الأعداء ﴿صُبۡحٗا﴾، وهذا أمرٌ أغلبيٌّ أنَّ الغارةَ تكون صباحًا.

[٤-٥] ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ﴾؛ أي: بعدْوهن وغارتهن ﴿نَقۡعٗا﴾؛ أي: غبارًا، ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ﴾؛ أي: براكِبهن ﴿جَمۡعًا﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

[٦] والمقسَم عليه؛ قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾؛ أي: منوعٌ للخير الذي لله عليه، فطبيعة الإنسان وجِبلَّته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤدِّيها كاملة موفرة؛ بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها من الحُقوق المالية والبدنيّة؛ إلَّا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلىٰ وصفِ السَّماح بأداء الحقوق.

[٧] ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾؛ أي: إنَّ الإنسان علىٰ ما يعرفُ من نفسه من المنع والكند لشاهدٌ بذلك لا يجحده ولا ينكره؛ لأن ذلك أمر بيِّنٌ واضح، ويحتمل أنَّ الضمير عائد إلىٰ الله تعالىٰ؛ أي: إن

العبد لربه لكنود والله شهيد علىٰ ذلك، ففيه الوعيد والتَّهديد الشَّديد لمن هو لربِّه كنود بأن الله عليه شهيد.

[٨] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: كثير الحبِّ للمال، وحبه لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدَّم شهوة نفسه علىٰ رضىٰ ربّه، وكل هذا لأنه قصَر نظره علىٰ هذه الدَّار، وغفل عن الآخرة.

[٩-١٠] ولهذا قال حاثًّا له علىٰ خوف يوم الوعيد: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾؛ أي: هلَّا يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصُّدور من كمائن الخير والشر، فصار السِّر علانية، والباطن ظاهرًا، وبان علىٰ وجوه الخلق نتيجةَ أعمالهم.

[١١] ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾؛ أي: مطَّلعٌ علىٰ أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخصَّ خُبْرَهم بذلك اليوم مع أنه خبيرٌ بهم كلَّ وقتٍ؛ لأن المراد بهذا الجزاء علىٰ الأعمال الناشئ عن علمٍ الله واطِّلاعه.

١٠١- تَفْسِيرُ سُورَةِ القَارِعَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة]

[١-٣] ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، سُمِّيت بذلك؛ لأنها تقرع الناس وتُزعجهم بأهوالها، ولهذا عظَّم أمرها وفخمه بقوله: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾.

[٤] ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ من شدَّة الفزع والهَول، ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾؛ أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في اللَّيل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجَّه، فإذا أُوقِدَ لها نارٌ تَهَافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهلِ العقول.

[٥] وأمَّا الجبال الصُّمُّ الصِّلابُ، فتكون ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾؛ أي: كالصُّوف المنفوش الذي بقي ضعيفًا جدًّا، تطير به أدنىٰ ريح.

قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل:٨٨]، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثورًا، فتضمحلّ ولا يبقىٰ منها شيء يشاهد؛ فحينئذٍ تُنصَبُ الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

[٦-٧] ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: رجحت حسناته علىٰ سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ في جنات النعيم.

[٨-١١] ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأنْ لم تكن له حسنات تقاوم سيئاتِه، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾؛ أي: مأواه ومسكنه النار؛ التي من أسمائها (الهاوية)، تكون له بمنزلة الأم الملازمة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[الفرقان:٦٥]، وقيل: إنَّ معنىٰ ذلك، فأمّ دماغه هاوية في النار، أي: يُلقىٰ في النار علىٰ

رأسه، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ وهذا تعظيمٌ لأمرها، ثم فسَّرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾؛ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها علىٰ حرارة نار الدُّنيا بسبعين ضعفًا، نستجير بالله منها.

١٠٢- تفسير سورة ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [التكاثر]

[١] يقول تعالىٰ موبِّخًا عبادَه عن اشتغالهم عمَّا خُلقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه، وتقديم محبّته علىٰ كل شيء: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثَر به، ليشمل ذلك كلّ ما يَتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون من التّكاثر في الأموال والأولاد والأنصار والجُنود والخدم والجاه وغير ذلك ممّا يُقصد منه مكاثرة كلِّ واحد للآخر، وليس المقصود منه وجه الله.

[٢] فاستمرَّت غفلتكم ولهوتُكم وتشاغلكم ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ فانكشف حينئذٍ لكم الغطاء، ولكن بعد ما تعذَّر عليكم استئنافه.

ودلَّ قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أنَّ البرزخ دار المقصود منها النُّفوذ إلىٰ الدار الآخرة، لِأَنَّ الله سمَّاهم زائرين ولم يسمِّهم مقيمين، فدلّ ذلك علىٰ البعث والجزاء بالأعمال في دارٍ باقية غير فانية.

[٣-٦] ولهذا توعّدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥﴾؛ أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلىٰ القلوب لما ألهاكم التكاثر ولبادرتم إلىٰ الأعمال الصَّالحة، ولكن عدم العلم الحقيقي صيَّركم إلىٰ ما ترون، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦﴾؛ أي: لتردُنّ القيامة، فلترَوُنّ الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

[٧] ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾؛ أي: رؤية بصرية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ

﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

[٨] ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: الذي تنعَّمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به علىٰ معاصيه فينعمُكم نعيمًا أعلىٰ منه وأفضل، أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربَّما استعنتم به علىٰ معاصي الله فيعاقبكم علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠] الآية.

١٠٣- تَفْسِيرُ سُورَة ﴿وَٱلْعَصۡرِ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر]

[١-٣] أقسم تعالىٰ بـ(العصر) الذي هو الليل والنهار محلّ أفعال العباد وأعمالهم أنّ كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

- قد يكون خسارًا مطلقًا؛ كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.
- وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمّم اللهُ الخسار لكل إنسان؛ إلا من اتصف بأربع صفات:

- الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرعٌ عنه لا يتم إلا به.
- والعمل الصالح؛ وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.
- والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه.
- والتواصي بالصَّبر علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأوَّلين، يُكمِّل العبدُ نفسَه، وبالأمرين الأخيرين يُكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون العبدُ قد سلِم من الخسار، وفاز بالربح العظيم.

١٠٤- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْهُمَزَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾ [الهمزة]

[١] ﴿وَيۡلٞ﴾؛ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾؛ أي: الذي يهمز الناس بفعله، ويلمزهم بقوله.

فالهمّاز: الذي يعيب الناس، ويطعَن عليهم بالإشارة والفعل.

واللماز: الذي يعيبهم بقوله.

[٢] ومن صفة هذا الهمّاز اللمّاز، أنه لا هم له سوىٰ جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك.

[٣] ﴿يَحۡسَبُ﴾ بجهلِه ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ في الدُّنيا، فلذلك كان كدُّه وسعيه كلُّه في تنمية ماله، الذي يظنُّ أنه ينمِّي عمره، ولم يدر أنَّ البخل يقصف الأعمار، ويخرِّب الدِّيار، وأنَّ البِرَّ يزيد في العمر.

[٤-٧] ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ﴾؛ أي: ليطرحن ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ تعظيمٌ لها، وتهويلٌ لشأنها، ثم فسَّرها بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ التي وقودُها الناس والحجارة ﴿ٱلَّتِي﴾ من شدَّتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾؛ أي: تنفذُ من الأجسام إلىٰ القلوب.

[٨-٩] ومع هذه الحرارةِ البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسُوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾؛ أي: مغلقة ﴿فِي عَمَدٖ﴾ من خلفِ الأبواب ﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية.

١٠٥- تَفْسِيرُ سُورَةَ الْفِيلِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ⑤﴾ [الفيل]

[١-٥] أي: أمَا رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلة توحيده وصِدق رسوله محمَّد ﷺ ما فعله الله بأصحاب الفيل الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إِخْرابه؛ فتجهّزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قِبَل للعرب به من الحبشة واليمن.

فلمَّا انتهوا إلىٰ قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا علىٰ أنفسهم منهم أرسل الله عليهم ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾؛ أي: متفرِّقة، تحمل أحجارًا مُحمَاةً ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾، فرمتهم بها، وتتبَّعت قاصيَهم ودانيهم، فخمدُوا وهمدُوا، وصاروا ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾، وكفىٰ اللهُ شرّهم، وردّ كيدهم في نحورهم، وقصتهم معروفةٌ مشهورة، وكانت تلك السَّنَةُ التي ولِدَ فيها رسولُ الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته وأدلّة رسالته، فللَّه الحمد والشكر.

١٠٦- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش]

[١-٤] قال كثيرٌ من المفسرين: إن الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشِّتاء لليمن، وفي الصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب؛ فأهلك اللهُ من أرادهم بسوءٍ، وعظَّم أمر الحرم وأهلَه في قلوب العرب، حتىٰ احترموهم، ولم يعترضُوا لهم في أيِّ سفرٍ أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشُّكر، فقال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾؛ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة، ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾، فرغَد الرزق والأمن من الخوف، من أكبر النِّعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالىٰ.

فلك اللّٰهُمَّ الحمد والشكر علىٰ نعمك الظاهرة والباطنة.

وخصَّ الله الرُّبوبية بالبيت لفضله وشرفه، وإلَّا فهو ربُّ كلِّ شيء.

١٠٧- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ٣
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمْنَعُونَ
ٱلْمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون]

[١] يقول تعالىٰ ذامًّا لمن ترك حقوقَه وحقوق عباده: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرُّسل.

[٢] ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: يَدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوةِ قلبه؛ ولأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا.

[٣] ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيرَه ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ومن باب أولىٰ أنَّه بنفسه لا يُطعم المسكين.

[٤-٥] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾؛ أي: الملتزمين لإقامة الصَّلاة، ولكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ أي: مضيِّعون لها، تاركون لوقتها، مخلون بأركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيَّعوا الصلاة التي هي أهم الطاعات، والسَّهو عن الصلاة هو الذي يستحقُّ صاحبه الذم واللوم.

وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كلِّ أحد، حتىٰ من النبي ﷺ.

[٦-٧] ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾؛ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾؛ أي: يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه علىٰ وجه العارية، أو الهبة؛ كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، ممَّا جرت العادة ببذله والسماح به، فهؤلاء لشدَّة حرصهم يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه؟!

وفي هذه السُّورة الحث علىٰ إطعام اليتيم والمساكين، والتحضيض علىٰ ذلك ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها وعلىٰ الإخلاص فيها وفي سائر الأعمال.

والحثُّ علىٰ فعل المعروف وبذْل الأمور الخفيفة؛ كعارية الإناء والدَّلو والكتاب ونحو ذلك؛ لأن الله ذمّ من لم يفعل ذلك.

والله سبحانه أعلم.

١٠٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر]

[١] يقول الله تعالىٰ لنبيِّه محمَّد ﷺ ممتنًّا عليه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾؛ أي: الخيرَ الكثير والفضلَ الغزير الذي من جملته ما يعطيهِ الله لنبيِّه ﷺ يوم القيامة من النَّهر الذي يقال له: (الكوثر) ومن الحوض؛ طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، آنيته عدد نجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرِب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا.

[٢] ولمَّا ذكر منَّته عليه أمرَه بشكرها فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، خصَّ هاتين العبادتين بالذِّكر لأنهما من أفضل العبادات وأجلِّ القربات؛ ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقُّلُه في أنواع العبودية، وفي النَّحر تقربٌ إلىٰ الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراجٌ للمال الذي جُبلت النفوس علىٰ محبَّته والشح به.

[٣] ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك وذامك ومنتقِّصك ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾؛ أي: المقطوع من كلِّ خير، ومقطوع العمل مقطوع الذِّكر، وأمَّا محمّد ﷺ، فهو الكامل حقًّا، الذي له الكمال الممكن للمخلوق من رفع الذِّكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

١٠٩- تَفسِيرِ سُورَةِ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]

[١-٦] أي: قل للكافرين مُعلنًا ومصرحًا ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ أي: تبرأ ممّا كانوا يعبدون من دون الله، ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله؛ فعبادتكم له المقترنة بالشِّرك لا تسمَّىٰ عبادة.

وكرَّر ذلك ليدل الأول علىٰ عدم وجود الفعل، والثاني علىٰ أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا؛ ولهذا ميَّز بين الفريقين وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء:٨٤]، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[يونس:٤١].

١١٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّصْرِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر]

[١-٣] في هذه السُّورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه علىٰ ما يترتَّب علىٰ ذلك:

فالبشارة: هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾، بحيث يكون كثيرٌ منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشَّر به.

وأمَّا الأمر بعد حصول النصر والفتح؛ فأمر الله رسوله أن يشكره علىٰ ذلك، ويسبحَ بحمده ويستغفرَه.

وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين:

- إشارة أنّ النّصر يستمر للدِّين، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشُّكر، والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم:٧]، وقد وُجِدَ ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرًّا، حتىٰ وصل الإسلام إلىٰ ما لم يصل إليه دينٌ من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتىٰ حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلوا بتفرُّق الكلمة، وتشتُّت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هذا فلهذه الأمَّة وهذا الدِّين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

- وأما الإشارة الثَّانِيَة: فهي الإشارة إلىٰ أنَّ أجل رسول الله ﷺ قد قَرُب ودنا، ووجْه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به، وقد عُهِد أنَّ الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار؛ كالصلاة والحج، وغير ذلك.

فأمْر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارةٌ إلىٰ أن أجله قد انتهىٰ، فليستعدَّ ويتهيأ للقاء ربه، ويختِم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان ﷺ يتأوَّل القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللَّهُمَّ ربنا وبحمدك، اللَّهُمَّ اغفر لي».

١١١- تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿تَبَّتْ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد]

أبو لهبٍ هو عمُّ النبي ﷺ، وكان شديد العداوة والأذية له، فلا فيه دينٌ له ولا حمية للقرابة -قبّحه الله-، فذمّه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزيٌ عليه إلىٰ يوم القيامة، فقال:

[١] ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾؛ أي: خسرت يداه، وشقي ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح.

[٢] ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ الَّذي كان عنده فأطغاه، ولا ما كسبَهُ فلم يردَّ عنه شيئًا من عذاب الله إذْ نزل به.

[٣-٥] ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾؛ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها علىٰ الإثم والعدوان، وتُلقي الشر، وتسعىٰ غاية ما تقدر عليه في أذيّة الرّسول ﷺ، وتجمع علىٰ ظهرها الأوزار بمنزلة من يجمعُ حطبًا، قد أعدَّ له في عنقه حبلًا ﴿مِّن مَّسَدِۭ﴾؛ أي: من ليفٍ، أو أنّها تحمل في النار الحطب علىٰ زوجها، متقلدة في عنقها حبلًا من مسد.

وعلىٰ كلٍّ ففي هذه السُّورة آية باهرة من آيات الله، فإنَّ الله أنزل هذه السورة وأبو لهبٍ وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولابد، ومن لازم ذلك أنَّهما لا يُسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشَّهادة.

١١٢- تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِخْلَاصِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص]

[١] أي: ﴿قُلۡ﴾ قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه، ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنىٰ، والصِّفات الكاملة العليا، والأفعال المقدّسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

[٢] ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج، فأهل العالم العلوي والسُّفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجَهم، ويرغبون إليه في مهمّاتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كَمُلَ في علمه، الحليم الذي قد كَمُلَ في حِلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته الذي وسِعَت رحمته كل شيء.. وهكذا سائر أوصافه.

[٣] ومن كماله أنَّه ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ لكمال غناه.

[٤] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله تبارك وتعالىٰ.

فهذه السُّورة مشتملة علىٰ توحيد الأسماء والصفات.

١١٣- تَفْسِيرُ سُورَةِ الفَلَقِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ [الفلق]

[١] أي: ﴿قُلۡ﴾ متعوِّذًا ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: ألجأ وألوذ، وأعتصم ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ أي: فالق الحب والنوىٰ، وفالق الإصباح.

[٢] ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميعَ ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات، فيُستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها.

[٣] ثم خصَّ بعد ما عمَّ، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؛ أي: من شرِّ ما يكون في الليل حين يغشىٰ الناس وتنتشر فيه كثيرٌ من الأرواح الشِّريرة والحيوانات المؤذية.

[٤] ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾؛ أي: ومن شرِّ السَّواحر، اللَّاتي يستعنَّ علىٰ سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدِنها علىٰ السحر.

[٥] ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ **والحاسد** هو: الذي يحبُّ زوال النعمة عن المحسود، فيسعىٰ في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلىٰ الاستعاذة بالله من شرِّه، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسدٍ شرير الطبع، خبيث النفس.

فهذه السُّورة تضمَّنت الاستعاذة من جميع أنواع الشُّرور عمومًا وخصوصًا، ودلت علىٰ أن السحر له حقيقةٌ يُخشىٰ من ضرره، ويُستعاذ بالله منه ومن أهله.

١١٤- تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس]

[١-٦] وهذه السورة مشتملة علىٰ الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلـٰههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشرِّه، أنه يوسوس في صدور الناس، فيُحسِّن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، ويُنشِّط إرادتهم لفعله، ويثبِّطهم عن الخير، ويُريهم إيَّاه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ثُمّ يخنُس؛ أي: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربَّه واستعان علىٰ دفعه، فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للنّاس كلِّهم، وأنَّ الخلق كلَّهم داخلون تحت الربوبية والمُلك.

فكل دابة هو آخذٌ بناصيتها، وبألوهيّته التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتمّ لهم إلَّا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويُريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السَّعير، والوسواس كما يكون من الجنّ يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

والحمد لله ربِّ العالمين أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، ونسأله تعالىٰ أن يُتمَّ نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت بيننا وبين كثيرٍ من بركاته، وخطايا وشهواتٍ ذهبت بقلوبنا عن تدبُّر آياته، ونرجوه ونأمل منه ألا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من رَوْح الله إلَّا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضَّالون.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، صلاةً وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات.

تمَّ تفسير كتاب الله بعونه وحُسن توفيقه علىٰ يد جامعه وكاتبه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سِعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وقع النقل في ٧ شعبان سنة ١٣٤٥.

ربنا تقبل منا واعفُ عنا إنك أنت الغفور الرحيم.

المحتويات

للمراسلة حول تصحيح الأخطاء المطبعية

Sunnah.College1@gmail.com